أحمد زياد محبك

فوق سطح العمارة

قصص قصيرة

٢٠١٢
دار الفرقان للغات ـ حلب

العنوان: فوق سطح العمارة
النوع: أدب ـ قصص قصيرة
المؤلف : الدكتور أحمد زياد محبك
mohabek@gmail.com
هاتف ثابت ٢٦٤٢١٣٢
جوال ٠٩٤٤٩٢٨٧٩٢

كتبت قصص هذه المجموعة عام ٢٠١١

موافقة ورزاة الإعلام: رقم ٩٨٥٦

تاريخ ٢٠١٢/٢/٢٢

منشورات دار الفرقان للغات ـ حلب
هاتف ٢٦٤٣٠٤٩
طبعة أولى عام ٢٠١٢
عدد النسخ ١٠٠٠

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

قطعة حجر...على الرصيف

في المساء، وأنا راجع من عملي إلى البيت، لم أجده في مكانه على الرصيف.
تنبّهتُ إلى أنني لم أره أيضاً في الصباح. قطعة الحجر وحدها لابثة في المكان على الرصيف بجوار السور. رحت على الرصيف مرتين وجئت، الشرطي الواقف في باب المصرف أخذ ينظر إليّ في ارتياب، اقتربت منه، حييته، سألته:
ـ هنا، على الرصيف، فوق هذا الحجر، يقعد دائماً رجل عجوز؟.
فهم من لهجتي أنني أسأله، فأجاب على الفور بجفاء وهو ما يزال يرتاب بي:
ـ لا أعرف، هذا أول يوم لي.
قلت مؤكداً:
ـ هذا الحجر الذي تراه إلى جانب السور يقعد عليه.
رد بجفاء ويده على بندقيته، وقد أثار وجهه في نفسي الخوف:
ـ قلت لك لا أعرف.

*

في كل يوم أراه، أنا ذاهب إلى مكتبي في الصباح، وأنا راجع منه، في المساء، في صيف أو في شتاء، على هذا الحجر يقعد، يسند ظهره إلى سور المصرف، وأمامه ميزان للأشخاص، لا يتكلم، ولا يسأل، ولا يمد يده، في نحو السبعين، أو أقل، لحيته بيضاء خشنة، شعره أبيض أشعث مبعثر، لم يسقط منه شعرة، حاجباه كثيفان جداً، اليوم سأعطيه، غداً

سأعطيه، في كل مرة أعد نفسي، ولا أفعل، سألت عنه زميلي في المكتب، قال لي وهو يرشف القهوة:"هذا يحصّل في اليوم أكثر من راتبك، يأخذ عشر ليرات مقابل الصعود فوق الميزان، وميزانه غير دقيق، في اليوم الواحد يقف فوق الميزان أكثر من عشرين، أي دخله في اليوم لا يقل عن مئتي ليرة، أي ستة آلاف ليرة في الشهر، أنت راتبك أقل من ستة آلاف، وإذا صعد فوق الميزان في اليوم أكثر من خمسين، صار دخله في الشهر مثل راتب السيد المدير، ولا تنس أيام الأعياد، في كل يوم من أيام العيد يحصل على أكثر من ألف وخمسمئة ليرة، حتى في يوم الجمعة، كثير من الأولاد يمرون به، ليعرفوا وزنهم، ولا تنس، كثير من الناس يرمون له عشر ليرات، على ظن منهم أنه فقير".
فكرت كثيراً، في كل مرة أقول لنفسي: "عشر ليرات أشتري بها لولدي علبة سكاكر، أو هي أجرة الحافلة، هو لا يستحقها".

*

اتصل بي المحاسب، ودعاني إلى مكتبه، فوجئت به يناولني عشرة آلاف وستمئة وثلاثين ليرة، دهشت، سألته، أجاب: "هي تعويضات مستحقة عن أعمال إضافية قبل سنتين"، شكرته، ناولته الثلاثين ليرة، هبة مني، قال لي:" أشكرك، أنا لا أريد أي قرش، أنت تعرفني، راتبي يكفيني، إذا شئت أعطها لهذا الرجل العجوز القاعد على الرصيف أمام المصرف"، وقبل أن أنطق بكلمة تابع قوله:"الرجل عنده ثلاثة أولاد، هكذا سمعت، أنا غير متأكد، وهم لا يسألون عنه، يعيش وحده، ويخجل من التسول".

*

قررت أن أعطيه الثلاثين ليرة، ولكن لم أجده على الرصيف.

تلفّت حولي، الشرطي المتجهم يرقبني، هو لا يعرف شيئاً، حقيقة هو جديد، أنا لم ألحظه من قبل، تنبّهت إلى عامل قمامة، وبيده مقشة، وهو يكنس أوراق الأشجار المتساقطة على الرصيف،"هو يعرفه من غير شك، سأسأله عنه"، توجهت إليه، سألته عنه.

أجابني:

ـ الرجل غني، ماهو فقير ولا بحاجة، تزوج ثلاث مرات، ولم يرزق بولد، ثم نذر إذا رزق بولد أن يتسول، ثم رزق بولد، وبدلاً من التسول، يقعد هنا، كما تراه كل يوم، ويضع أمامه ميزان الأشخاص، وإذا أعطيته أي شيء فهو لا يرده، حتى يفي بالنذر.

وأخذ يدفع الأوراق والغبار والقمامة أمامه، وهو يعلق:

ـ ألا تعرف؟ الجنون فنون.

*

في صباح اليوم التالي رأيت في باب المصرف شرطياً، وجهه مألوف بالنسبة إليّ، لعلي رأيته من قبل، سألته عنه، الحجر ما يزال على الرصيف، بجوار السور، أجابني:

ـ المدير صرفه.

لا حظ دهشتي فأضاف:

ـ ما هو متسول ولا صاحب ميزان يتعيّش منه، هو حارس، يراقب الناس أمام المصرف، وفي جيبه هاتف خاص، في حال حصول أي حركة غريبة يتصل فوراً.

مضيت غير مصدق.

في المساء، وأنا راجع إلى البيت من عملي، رأيت شرطياً غير شرطي الصباح يقف بباب المصرف، سألته عنه، فأجاب بسرعة:

ـ مات، استراح، وأنا ارتحت، كنت أتضايق من قعوده هنا مثل حجر لا يتحرك.

*

مرت عدة أيام، مر أسبوع، مر شهر أو أكثر، والحجر الذي يقعد عليه ما يزال على الرصيف في موضعه. فقط الرجل هو الغائب. مات الرجل إذن، رحمه الله.

*

ذات يوم، وأنا أقبض راتبي، قال لي المحاسب:

ـ هل تتذكر الرجل الفقير على الرصيف أمام المصرف؟ وقد نصحت لك أن تعطيه ثلاثين ليرة؟

ـ نعم.

ـ سمعت أنه جاسوس يعمل لدولة أجنبية، وتم اعتقاله، وسوف يشنق.

تدخل أحد الزملاء وكان يعد رزمة نقود، هي راتبه الذي قبضه، فقال:

ـ والله أخطأت في العد، لما سمعت الكلام على هذا الرجل العبقري.

وصمت، أعاد عدّ النقود، ثم أضاف:

ـ المبلغ بالتمام صحيح، ما في أي مشكلة، أما الرجل فأنا أعرفه، هذا الرجل ابن أسرة غنية، يعرف خمس لغات، درس الفلسفة، أرسله أبوه إلى ألمانيا، نال ثلاث شهادات دكتوراه، في الطب والفلسفة والموسيقا، هو عازف غيتار، وهو في ألمانيا أصيب بحادث سيارة، فقد ذاكرته، أنفق عليه أبوه كل ما يملك، ولكن من غير فائدة.

قلت:

ـ الرجل مات، وأنا منذ شهر أو أكثر ما رأيته، الله يرحمه.

نظر إليّ الزميل، وأضاف:

ـ الرجل لم يمت، اليوم أنا رأيته أمام المصرف، وهو قاعد على الحجر.

*

غادرت مكتب المحاسب غيرَ مصدِّق، هممت بالخروج من المديرية للتأكد من وجوده على الرصيف، ولكنني أجَّلت ذلك إلى المساء، إلى حين انصرافي من العمل.
في المساء، لم أجد أحداً. الحجر في موضعه.

*

شرطي متقدم في العمر يقف أمام باب المصرف، وجهه مألوف، لاشك في أني رأيته من قبل، ولا شك في أنه يعرفني، سألته:
ـ هل رأيت الرجل العجوز الذي يقعد هنا دائماً.
نظر إلي مدهوشاً، تبسم ثم قال:
ـ منذ عشر سنوات وأنا أقف هنا، ما رأيت أي رجل.
قلت له:
ـ وهذا الحجر؟
تبسم ثانية، وقال:
ـ هذا الحجر قديم، هو قطعة زائدة من حجارة سور المصرف، أنا منذ عملي هنا قبل عشر سنوات رأيت هذا الحجر، ولكن ما رأيت ذلك الرجل الذي تتحدث عنه.

نصف هذه الأرغفة يكفي

أخرج من البيت، أنعطف إلى اليمين، أمضي في زقاق ضيق، أنحدر إلى ساحة صغيرة تَنْصَبُّ فيها ثلاثة شوارع ضيقة قديمة مرصوفة بحجارة مفلطحة، في مدخل الشارع الأول فرن أمامه مصطبة خشبية يلقي عليها الفران أرغفة من دقيق القمح الأسمر، الأرغفة كقباب من ذهب، ثمة مشترون كثر، لكنهم لا يزدحمون، يحاول كل منهم أن ينتقي الرغيف المقبب، يلفت نظري فرن آخر في مدخل الشارع الثاني، الخبز فيه من دقيق أبيض، الأرغفة بيضاء ناصعة، أميل نحو الفرن الأول، آخذ في الإسراع بانتقاء الأرغفة الأكثر انتفاخاً، تراكمَ بعضُها فوق بعض، أنتحي بها جانباً، أضعها فوق رف خشبي، البخار اللاهب يتصاعد منها، عبق الخبز شهي، هو من قمح خالص، لم أذق مثله منذ خمسين عاماً، يوم كنت في العاشرة، يوم كنت آتي إلى الفرن فأنتقي الأرغفة السمراء المقبّبة، تدهنها جدتي بالسمن، ترش فوقها السكر، ترش فوقه ماء الزهر، والقرفة، عبق شهي، ومذاق لذيذ، ثمة فرن ثالث، ورابع، في مدخل كل شارع فرن، عرفت الآن هذه الساحة الضيقة الصغيرة، هي ساحة باب النصر، وفيها محلات كثيرة لبيع الكتب القديمة والدفاتر والأقلام، أنا إذن في حي الفرافرة، وذلك البيت هو البيت الذي عشت فيه وأنا طفل، كيف عدت إليه اليوم وأنا في الخمسين؟ رجل إلى جواري يقول لي:"لا تكثر من شراء الخبز، غداً يفقد مذاقه، اشتر حاجتك منه كل يوم بيوم"، ألتفت أرى محلاً للجزارة، لحم كثير مقطَّعٌ شرائحَ شرائحَ، هو على ما يبدو لحم عجل، متألق اللون، طازج، نظيف، يا إلهي، هناك فرن خامس، متى تم افتتاحُه؟ أتخلّى

عن بعض الأرغفة التي انتقيتها، أنتقي ثانية المقبَّبة أكثر، أحمل كومة الأرغفة، أمضي نحو المصطبة الخشبية حيث البائع والميزان، ليس ثمة ازدحام، سيدتان تشتريان الخبز، لن تنهض بعد اليوم زوجتي من الفراش في الخامسة صباحاً وتذهب لشراء الخبز، وهي تقول لي: "اقعد أنت وراء المنضدة، وحضّر دروسك قبل الذهاب إلى المدرسة، أو صحِّح دفاتر الطلاب، أنا سأذهب لشراء الخبز، رتل الرجال المصطفين أمام الفرن طويل، رتل النساء أقل، يأتي كثير من الرجال يلبسون الزي العسكري ليأخذوا الخبز من غير الاصطفاف في الرتل، وبعضهم مدنيون مثلك، الفران صاحبهم أو قريبهم ينادونه بكلمات، أو يشيرون إليه بيدهم إشارات لا أفهمها، فيعطيهم أكواماً من الخبز، تكفيهم شهراً، أضعاف ما يعطينا، في اليومين الأخيرين بدأ رتل النساء يطول، اعتادت النساء على الخروج لشراء الخبز بدلاً من الرجال، سأشتري اليوم ما يكفيني لأسبوع، سأضعه في الثلاجة"، هكذا تقول لي زوجتي، في البدء كنت أشعر بالحرج، أخجل من نفسي، أنا في الفراش، وزوجتي تذهب لشراء الخبز، ولكن أصبح الأمر بعد ذلك عادياً، ولكن هاهو ذا الخبز كثير، لن أشتريَ سوى حاجتنا لهذا اليوم، مرة أخرى أتخلى عن نصف الأرغفة التي كنت قد انتقيتها، ما حاجتنا لها، نصف هذه الأرغفة يكفي، أقترب من الميزان، لا أحد ألبتة، الخبز متراكم، أترك كل الأرغفة التي انتقيتها، ألغي فكرة شراء الخبز كلياً.

وأستيقظ، أهم بالنهوض من الفراش، ولكن أحتضن زوجتي بين يدي، وهي إلى جانبي في الفراش، أشدها إلى صدري، أرفع اللحاف فوقنا، أقول لها: الخبز كثير، لا تنهضي اليوم لشراء الخبز، ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان.

مقابلة ناجحة

يدخل عليّ أخي والفرح يملأ وجهه، وهو مطمئن مستبشر، كأنه قدّيس، وقد حَظِيَ بمباركة الأنبياء جميعاً والقديسين كلهم ونال عندهم الحُظوة، وهو يناولني علبة، أعرف على الفور، هي علبة حلوى أحضرها لي معه من العاصمة هديّةً.

ـ أرجو ألا تكون قد تعبت في السفر.

ـ اعتدت على السفر إلى العاصمة والعودة منها في اليوم نفسه، خمس ساعات في الذهاب وخمس ساعات في الإياب لم تعد متعبة بوجود الحافلات الحديثة.

أنت شاب، ولا تقدّر حقيقة التعب، وفي وقتك متسع، خسارة، ولا تقدّر قيمة هذا الوقت وخطورة هدره.

ـ وكيف كانت المقابلة؟ أولاً أشكرك على الهدية، ولم يكن من ضرورة لتتعب نفسك، إيه، حدثني.

كنا في كل سفرة نحضر البرازق من العاصمة، وكانت مشهورة بها أيام زمان، كانت أجمل هدية، وكانت بسعر زهيد ونوع فاخر، الآن أصبحت من أردأ الأنواع، ولا سيما التي تباع في محطات السفر أو الاستراحات في الطريق، أنا نفسي اشتريت علبة حلوى، وإذا هي علبة حجارة لا حلوى.

ـ لم أنتظر أبداً، مدير مكتب الوزير أدخلني على السيد الوزير مباشرة، قدمت له نفسي فنهض فوراً وفتح لي باب مكتب الوزير وقال لي تفضل، طبعاً انا أشكرك، وأقدر أنك وصّيت بي عند صديقك رئيس الديوان، ولا شك، هو حدّث مدير مكتب الوزير، وأنا شخصياً أخذت سيارة أجرة مباشرة، ووصلت في الموعد المحدد، عند تمام الساعة الحادية عشرة.

وليس هذا، بل شرحت لصديقي رئيس الديوان وضعك، طبعاً أنت لا تعرف، ولاشك، عندما دخلتَ على الوزير كان عنده كل شيء عنك، بل أنا متأكد أنه أحضر ملفّك ودرسه، ورأى صورتك، وحضّر الجواب المناسب، بل الإجابات المناسبة، إيه، قل لي.

ـ وماذا قال لك الوزير، السيّد الوزير.

ـ أنا شرحت له وضعي، حدثته بإيجاز وتكثيف، كنت طوال الطريق أحضّر الكلمات التي يجب أن أقولها، وقفت أمامه باحترام شديد، انحنيت وأنا أصافحه، لم أنظر في عينيه، كنت أنظر في الأرض، هو متواضع جداً ولطيف، نهض من وراء مكتبه، وقال لي تفضل اقعد يا ولدي، قعدت في مقعد جلدي، أحسست أني أغوص في قالب زبدة.

ـ إيه، والآن اقعد، نسينا أنفسنا، اقعد وحدثني، وهذا أنا قعدت.

ـ ترك مكتبه، وقعد إلى جواري مثلك تماماً.

طبعاً، يجب أن يظهر، وهو الوزير لطيفاً ودوداً أكثر من أمك وأبيك، لتخرج فتمدحه وتثني عليه، وهل يعقل أن يقسو أو يتكبر، أنت لا تعرف.

ـ هذا تواضع منه.

ـ قعد إلى جواري، وكان أحياناً يضع يده على يدي وهو يكلمني، ودخل علينا موظف، شعره مسرّح بعناية، صقيل، لامع، بدلته فاخرة، هممت بالنهوض احتراماً له، ولكن عرفت على الفور أنه آذن في مكتبه، كان يحمل بيده دلة قهوة فضية عليها نقوش وزخارف بالذهب، صب لي فنجان قهوة مُرّة وناولني إياه بيده اليمنى، وهو ينحني بتواضع، شعرت كأنني ضيف رسمي، وأنا شاب في الحادية والعشرين، وأمس تخرجت من الجامعة، عبق القهوة لا أنساه، كأنها من الهال الخالص.

طبعاً، كل شيء يجب أن تذكره ولا تنساه، كل شيء يجب أن يكون خاصاً ومتميزاً كي يسيطر عليك، ويغسل دماغك، ويبهرك، وتكون أنت الأضعف، وتحس بالمنّة عليك، من حيث لا تحس ولا تدري، هذا فن بل هو علم له رجاله، يا أخي.

ـ نعم، تابع حديثك، المهم، دعنا من القهوة، ماذا قال لك؟

ـ أنا حدثته بلغة عربية فصيحة، وأظن أني لم أخطئ أبداً، وكنت أعتني بإخراج الحروف من مخارجها السليمة، ولم أكن أرفع صوتي، كنت أتكلم بهدوء وأنا مسيطر على الموقف، أقصد على أعصابي.

سيطرتك على الموقف رائعة، بل مضحكة، من تحسب نفسك، يجب أن تكون مسيطراً على الموقف بعد ذلك.

ـ وبماذا أجابك، أعطني النتيجة؟

هذه التفاصيل أعرفها.

ويدفع الباب ويدخل علينا حفيدي وهو يصيح:

ـ جدي، جدي، عندي نكتة جديدة.

ـ ليس هذا وقت النكت يا حميد، عندنا عمك وسيم.

ـ ولكن أنت ياجدي قلت لي تريد أن تسمع كل يوم نكتة جديدة، أنا اليوم قرأت نكتة جديدة، وهذه حقيقية، قرأتها في كتاب جحا.

ـ لابأس، هات أسمعنا.

ـ الملك قال لجحا عندي حمار أريد تعليمه القراءة والكتابة، وكان جحا سمع أن الملك قتل كل شخص يقول له الحمار لا يمكن تعليمه، فأراد ....جدي، أنت تعرف النكتة؟

ـ تابع، احك.

ـ لأ، إذا كنت تعرفها لن أحكيها.

ـ عمك وسيم لا يعرفها، احكها له.

ـ يعني أنت تعرفها.

ـ المهم، احكها.
ـ لأ، لن أحكيها
ويتدخل وسيم:
ـ احكها ياحميد، أنا لا أعرفها.
ـ طيب، أين وصلنا؟ نعم تذكرت، جحا قال للملك أنا سأعلم حمارك، لكن تعليمه يحتاج إلى وقت، وسأله الملك، كم سنة يحتاج حتى يتعلم، فقال له جحا عشر سنين، ووافق الملك، لما طلع جحا، قال له الناس، كيف تضمن تعليم الحمار، قال لهم، والله أنت تعرفها يا وسيم.
ـ صدقني لا أعرفها، أكملها.
ـ قال لهم بعد عشر سنين إما أن يموت الحمار أو أموت أنا أو يموت الملك.
أقول لحميد:
ـ وإذا مر عشر سنوات وما مات الحمار ولا جحا ولا الملك.
ويرد بذكاء:
ـ يطلب التمديد عشر سنين.
ـ وإذا مدد، وما مات الملك ولا الحمار ولا جحا.
ـ لا، أنت عقّدتها، لا بد أن يموت الملك.
وأقول له:
ـ وإذا مات الملك، وجاء من بعده ملك جديد، وقال لجحا أين الحمار الذي وعدت بتعليمه؟.
ـ لا ياجدي، هذه ما عادت نكتة، هذه رواية،أنا زعلت منك.
ويهم بالخروج، فأناديه:
ـ تعال خذ علبة الحلوى، أحضرها لنا عمك وسيم.
وألتفت إلى أخي:
ـ وماذا قال لك الوزير؟

ـ قال لي: أنت شاب متمكن من العربية، وموهوب، وأنا أهنئك، وإذا لم تحصل على فرصة للتوظيف هذا العام ففي العام القادم سيتم الإعلان عن مسابقة جديدة يمكن أن تتقدم إليها، وأنا كنت جريئاً، فقلت له: ولكن يكون قد ضاع من عمري سنة، ضحك وقال لي: في هذه السنة تكون قد قرأت وتمكنت من العربية أكثر وعمقت ثقافتك، وصمت لحظة، ثم قال: وبالمناسبة بعد شهرين أو ثلاثة سيعلن عن مسابقة لاختيار مذيعين، يمكنك التقدم إليها، وأنا من خلال حديثك معي لا حظت فصاحتك وسلامة نطقك، وصوتك إذاعي ومناسب جداً للعمل في الإذاعة والتفزيون ووجهك مشرق وفيه وسامة وأنت اسمك وسيم وهو مناسب، وإن كان في الواقع مطلوب تعيين أربعة مذيعين، وقد يكون حظك في العمل الإذاعي أوفر.

نعم، لكل امرئ من اسمه نصيب، وأبوك رحمه الله كان مصيباً في تسميتك وسيم، وربما كان أبوك الله يرحمه يتوقع أن تعمل في الإذاعة فاختار لك هذا الاسم الوسيم، ولكن إذا كان المطلوب تعيين ستمئة مدرس ولم يكن لك حظ بينهم، فكيف يكون لك حظ في تعيين أربعة مذيعين؟ على كل حال الدنيا كلها حظوظ.

ـ أنت معي؟ هل تتابعني؟

ـ نعم، أنا معك، تفضل تابع.

ـ واتتني الجرأة مرة ثانية وقلت له: أنا أحب التدريس، فقال لي: هذا شيء رائع ياولدي مهنة التدريس مهنة شريفة وأنا أنصح لك أن تراسل الدول العربية ولاسيما دول الخليج، عندهم فرص جيدة للعمل ورواتبهم جيدة، وصدقني يا أخي لا أعرف كيف جاءتني الشجاعة والقوة، قلت له أنا أحب وطني وأريد العمل فيه، ربت بيده الدافئة على كتفي وقال لي: بارك الله فيك يا ولدي، أنا أحييك على هذا الشعور الوطني، ولكن لا

تنس أننا شعب عربي واحد، وأن الوطن العربي واحد، عملك في أي قطر من أقطار الوطن العربي هو عمل واحد، هنا أو هناك، بل عملك في قطر عربي آخر يعني أنك تحمل رسالة قومية مهمة، ثم ربت مرة أخرى على كتفي وقال: أنا ياولدي عملت أول ما عملت في الجزائر، وأخذ يحدثني عن الجزائر والثورة الجزائرية ووحدة الشعب العربي، حتى شعرت أني قد أخذت كثيراً من وقته، ودخل مرة ثانية علينا الآذن بقامته المديدة وأناقته، وصب لي مرة ثانية من تلك القهوة التي لا أنساها.

ـ هذا يعني: الزيارة انتهت وعليك أن تنصرف؟

ويفتح الباب، ويقتحم علينا حميد ثانية الغرفة وهو يصيح:

ـ جدي جدي.

ـ عندك نكتة ثانية؟

ـ لأ، كل يوم نكتة واحدة، مثل ما وعدتك، لكن وجدت الحل.

ـ وما هو؟

ـ يأخذ جحا الحمار ويهرب به إلى بلد آخر.

والشرطة والحدود وجواز السفر والأنتربول، لا يمكن أن يهرب أحد حتى القطة.

ـ إيه، صح، حل مؤقت، مقبول، أحسنت.

ـ عندك حل ثاني ياجدي؟

ـ لا ياولدي، ماعندي، اسأل أمك، يمكن عندها ألف حل.

ويخرج حميد

ـ إيه تابع، يا وسيم.

ـ نعم، أنا فهمت، فقمت، وقلت له: سيادة الوزير، أنا أصغر إخوتي، آخر العنقود، ولا أستطيع السفر من أجل أمي، لأن والدي متوفَّى، وأريد أن أحصل على وظيفة في بلدي أولاً، يمكن بعد ذلك أن أسافر إلى أي بلد آخر، فوقف قبالتي، أطرق

قليلاً، ثم قال لي بلطف وهدوء، وهو يضع يده على كتفي: في السفر سبع فوائد ياولدي، وكما قال الشاعر: اغترب تتجدد، وعلى الشاب أن يسافر ويرى العالم، ويكتسب خبرة، ثم بلطف، مد يده إلى صندوق صغير على مكتبه، وناولني بطاقة وقال لي: هذه البطاقة باسمي يمكن أن تفيدك في دول الخليج، سفيرنا في الإمارات صديقي، إذا عملت هناك يمكن أن تزوره.

هذا يعني أن سفرك أصبح حتماً مقضياً، وكأنك الآن هناك في دول الخليج، هنيئاً لك، ومع بطاقة شخصية باسم السيد الوزير تقتح لك الأبواب كلها هناك، سافر ياحبيبي سافر بالسلامة.

ويقتحم علينا حفيدي الباب مرة أخرى ليسأل:

ـ جدي، هل تعرف الملك صاحب الحمار؟ ومتى عاش؟

ـ لا يا ولدي.

ـ ما كان في زمانك الملك وجحا والحمار؟

ـ لأ، لأ، ياولدي، هذه نكتة.

ـ خسارة، حسبتها حقيقة، طلعت كذبة.

احمد ربك، هي كذبة، أفضل من أن تكون من حقيقة.

يخرج حميد، وقد زوى بين عينيه، ناكس الراس، يحس بالخيبة، ألتفت إلى أخي وسيم، أسأله:

ـ وما شعورك بعد خروجك من مكتب السيد الوزير؟

ـ خرجت وأنا مملوء بالثقة بالنفس، ومطمئن، الحقيقة كانت المقابلة ناجحة.

هل أقول له إنني مررت بهذا الموقف مع الاختلاف في بعض التفاصيل قبل ربع قرن؟ ولعلي أتذكر بيتاً للأخطل الصغير وإن كان في مقام مختلف يقول فيه:

عَرَفْتُهُمُ واحداً واحداً وذقتُ الذي ذقتَه مرتين

ميِّت من ألف سنة

ـ أبي، عندنا الأسبوع القادم رحلة مدرسية...
رمى اللقمة من فمه، دفع الصحن، نهض وهو يصرخ به قبل أن يتم الجملة:
ـ لا رحلة ولا مدرسة، اقعد في البيت.
ويمضي نحو غرفته، يغلق عليه الباب.
تدخل في إثره زوجته:
ـ يارجل، الولد لم يقل أي شيء، وأنت نفسك العام الماضي كنت تقول له شارك في الرحلات كلها، وكنت تشجعه.
ويصيح بها:
ـ العام الماضي راح مع العام الماضي.
ـ ولكن
ـ لا تقولي أي شيء، وإلا والله العظيم حلفت عليك ألف يمين بالطـ...
وابتلع ريقه
وقفت صامتة
ـ اخرجي، لا تقفي في وجهي..
ترددت ثم خرجت.
قعد على حافة السرير، في مواجهة خزانة الثياب، مرآة قديمة صدئة أمامه، يعلوها الغبش والغبار.
الله يخزي الشيطان، اليوم من الصبح وأنت مزعوج، الولد لم يقل أي شيء، والرحلة من حقه، وبعد ذلك هو شاب، أصبح في الثالث الإعدادي، أنت كنت العام الماضي تشجعه على المشاركة في كل الرحلات، كلام صحيح، ولكن اليوم من

الصبح وأنت مزعوج، أول سائق تشير له لا يقف، الثاني تقول له إلى مديرية العمل يقول لك هي في الشمال وأنا طريقي إلى الجنوب، سائق رابع يقول لك الطريق إلى المديرية مزدحم سآخذ منك ضعف ما يسجله العداد، وأنت نازل على الدرج نسيت الدرجة الرابعة المكسورة في الدور الثالث، وكنت ستقع على ظهرك، لولا أنك استندت إلى سور الدرج، وعند الدور الأول قطة ميتة، رائحتها ساطعة، أخيراً وصلت إلى المديرية، العداد خمس وستون ليرة، السائق يأخذ خمساً وسبعين، الحارس يفاجئك في مدخل المديرية، "رئيس الحركة سأل عنك، رفع دفتر التوقيع على الدوام، من الضروري مراجعة المدير"، الموظف الذي يأخذ ويعطي لا أحد يحاسبه ولو تأخر ساعة، أنت وأمثالك تُحاسَب على تأخر نصف دقيقة، تصيح به:"وإذا ما راجعته؟ ليحسم راتب هذا اليوم"، ولكنك تراجعه، تعتذر إليه، يجيبك ببرود:"تعرف أنت، أنا أتسامح مع الموظفين في مديريتي، وأقدر قيمة الإنجاز والعمل، وأعرف، أنت ستعوض عن تأخرك، ولكن رئيس الحركة يحسب عليك ساعات تأخرك، وسيرفع إليَّ من غير شك اقتراح العقوبة، وإذا سكتُّ، اتهمني بالتواطؤ معك"، هذه إهانة ما بعدها إهانة، وهي تهديد مبطن، وتقول له بشيء من عزة النفس:"سأرجع إلى البيت، واعتبر هذا اليوم إجازة"، يضحك ضحكة عريضة، ساخرة، يقول لك:"هذا لا يصح، أنت أعز موظف في هذه المديرية، وتعرف مكانتك عندي، وأنت تعرف القانون، للحصول على إجازة لا بد من طلب قبل يومين، ولا بد من موافقة رئيس دائرتك ووجود البديل، ثم موافقتي، أنا أوافق، ولكن لا بد من موافقة رئيس دائرتك، حتى لو وافقت أنا، قد لا يوافق رئيس الحركة، يقول: نحن بحاجة إليك، ومادمت قد جئت، فخروجك الآن يعتبر مثل الغياب غير

المبرر، أو الانقطاع عن العمل، وقد يفسر على أنه إضراب عن العمل، وتقع نحن وأنت في مشكلة، أنا أقدر عملك وجهودك، ولكن القانون هو القانون، ولست أنا في المديرية وحدي"، ويأتيك مراجع والشرر يتطاير من عينيه، يجب إنجاز المعاملة فوراً، وعند العودة في البيت يسألك الجار: "هل تعرف من رمى القطة الميتة أمام باب الدار؟"، وهل أنت حارس العمارة؟ ثم يقترح عليك المساهمة بمبلغ من المال لصنع باب خارجي للعمارة، ومرة أخرى تتعثر عند الدرجة المكسورة، ولكن ماذنب الولد؟، من حقه المشاركة في الرحلة، أصبح في الثالث الإعدادي، ما هو بولد، هو في سن المراهقة، يجب أن أراعي هذه المرحلة، سأقول لأمه....

وتدخل عليه زوجته حاملة فنجان قهوة، ينهض، مرآة الخزانة أمامه، قديمة، صدئة، يعلوها الغبش والغبار، يضربها بقبضة يده، تتشظى المرآة، يسيل الدم من يده.

- أقسم بالله، لا أريد رؤيتك لا أنت ولا الولد، ما عدت أطيق هذا البيت، اتركيني في حالي، لا قهوة ولا رحلة ولا ولد، اخرجي وأغلقي الباب وراءك، اعتبريني غير موجود في البيت، اعتبريني في القبر متّ من ألف سنة.

ـ لا تتراجع، ما دمت قد وعدت.
ـ أرجوك، سوف أعود.
ـ وصلنا إلى الدور الخامس، ولم يبق أمامنا سوى عشرين درجة.
ـ أنا متشائم، في الدور الثاني تعثرت وكدت أقع، وفي مدخل البناء رأيت قطة ميتة، رائحتها قاتلة.
ـ لا علاقة لهذا كله بالموقف، لا تتراجع.
ـ والمصعد متعطل.
ـ لا بأس، سنتوقف قليلاً لنلتقط الأنفاس.
ـ صدقني أحس كأني ماض إلى المشنقة، كأن بلاطة كبيرة بحجم هذه العمارة فوق صدري.

*

هو صديق العمر، أعرفه منذ عشرين عاماً، مرح، كريم، شهم، قوي الإرادة، صادق الوعد، لا يكذب، مستقيم، لا يخدع ولا يغش، لا يتردد في تقديم ما يقدر عليه من خدمة أو عون أو مساعدة، منذ عشرين عاماً ونحن أصدقاء، بلغت أنا الستين واقترب هو منها، عرّفني على أخويه، أصبحا من أصدقائي، لا يقلان عنه قوة وشهامة ونبلاً، هو الأوسط فيهما، ولكن فقط منذ شهرين أوثلاثة تقريباً عرفت أنه في خصام مع أخيه الأكبر، وأنه معه في حالة من القطيعة التامة، وقد مر على هذه القطيعة سنة أو أكثر، مرت مناسبات كثيرة ولم يزر فيها أحدهما الآخر، عرفت بالقطيعة مصادفة، من خلال زلة لسان، كان كل منهما يخفي عني هذه القطيعة، لم أسأل عن السبب، إنما سعيت في الصلح، مرت أشهر ثلاثة

وأنا أضغط فيها على صديقي، وأحثه على زيارة أخيه، والاعتذار إليه، أو عدم الاعتذار، يكفي أن تقرع عليه الباب، ويراك جئته زائراً حتى تنتهي القطيعة ويزول الخصام، قبل أسبوع فقط علمت أن الأخ الكبير قد أجرى عملية بسيطة، فتّت فيها حصيات صغيرة في الكلية، زرته في المستشفى، وعرضت على صديقي أن يزور أخاه معي، فاعتذر، ألححت عليه فوعدني أن يزوره في بيته، واليوم بر بوعده، وهاهو ذا معي، ونحن نصعد الدرج، ونكاد نبلغ الباب.

*

- وصلنا، أرجوك، اقرع الباب.
- سأنزل.
- أنا سأقرع الباب.
- لا تحرجني.
- تخيل أن الباب قد فتح وخرج لنا الآن.
- لو كان أخي عن حق لفتح الباب الآن وخرج.
- ماهذا؟ وهل هو مطّلع على الغيب؟!.
- كان يحس بوقع خطواتي، طالما زرته، وطالما صادفته على الدرج، أو فتح الباب قبل أن أصل.
- هذا الكلام جميل، يعني أنه يحبك.
- هذا كان أيام زمان.

*

أحرجني، كانت زلة لسان مني ، وعدته، وها أنذا الآن معه أفي بوعدي، مع كل درجة أصعدها يسقط قلبي، أنا سعيد لأن المصعد متعطل، اتخذت ذلك ذريعة للعودة، ولكنه قال لي مع صعود الدرج سيصفو قلبك، سوف تتطهر روحك، أنت تصعد، أي أنت تسمو، أي أنت تسعد، صديقي فيلسوف، عالم نفس، لا أعرف كيف أقنعني، الحقيقة لم يقنعني، هو أحرجني، وأنا

ملتزم طوال عمري بكلمتي، وهو صديق حميم، ليتني أسقط على الدرج وتنكسر قدمي، تعثرت على الدرج، ولكن لم أسقط، ليت جلطة تنال مني الآن، لا يمكن أن أقابله، صديقي أقنعني، لا يحل للمؤمن أن يهجر أخاه، أعرف الحديث، لا تكمله، لا يحل له أن يهجره فوق ثلاث ليال، أنا أرتكب إذن الحرام، بصراحة مرَّ عامان ما التقينا، بل نحن في قطيعة، أخي الأصغر عرف القطيعة بيننا، وهو في حرج، هو الآخر لا يزورني، وأنا على يقين من أنه لا يزور أخاه، لا يريد أن يقف إلى جانب واحد منا، سأرجع، حتى لو وصلتُ إلى الدور السابع، النزول أهون من الصعود، أنت قلت لي إن روحي سوف تتطهَّر، وإن نفسي سوف تسمو، وإنني أمام مشقّة الصعود سوف أنسى، لن أنسى، ولن أغفر، ولم أتطهّر.

*

ـ أنت تعرف، لا مصلحة لي في الصلح بينكما ولا الخصام.

ـ أرجوك، سنعود، أنا بررت بوعدي، وجئت إلى زيارته.

ـ هو أخوك، ولا يجوز مثل هذه القطيعة؟

ـ ليس أخي، هو عدو، أقسم لك ليس أخي، سافل وحقير.

*

ما سر هذا الانفجار، إذا ضغطت عليه أكثر فسوف يرميني أنا على الدرج، بدأ الغضب يملأ عينيه، ما عرفته هكذا من قبل، طيب ومهذب ووديع، وطوال صحبتنا لم ينبس بكلمة نابية، هل يحمل الإنسان في داخله وحشاً يمكن أن ينفجر في أي لحظة، ترى لو نسبت أنا هذه الصفات إلى أخيه فهل كان سيقبل؟ ليتني لم أعرض عليه الصلح، ولكن لن أضعف.

*

ـ هو أخوك، ولا يمكن أن تنعته بهذه الصفات.

ـ هو ليس أخي، لولا أن أمي طاهرة وقديسة لقلت إنه ابن زنا.

ـ إذن، لأجل أمك رحمها الله اقرع الباب أو اسمح لي بقرعه.
ـ أنا لأجل أمي مستعد لتقبيل أرجل البشر كلهم، إلا أخي، أنا غير مستعد لأقول له كلمة مرحبا.
ـ يا أخي، يا صديقي، يا حبيبي.
ـ اطلب مني ما تريد، إلا

*

ما سر هذا العداء، أعرف أن الأب مات ولم يترك لهم شيئاً ليختلفوا فيه، حتى إنه لم يترك لهم داراً ليرثوها، وكذلك الأم، وكل منهم يسكن في حي بعيد عن الآخر.

*

ـ سأرجع، وإذا لم تتركني فسوف ألقي بنفسي من فوق الدرج.
أنزل إلى جواره على الدرج صامتين، نهبط ببطء، أتمنى أن نرى أخاه وهو يصعد على الدرج، ولكن أعرف أن أخاه يستريح في الفراش، ولا يمكن أن نراه.
ـ الآن وقد أصبحت في الشارع عادت روحي إليّ، صدقني، وأنا أمام باب داره كنت سأختنق.
ـ أنا أحترم رأيك، وأنا على يقين بأن الزمن كفيل بمداواة الجراح، لكن، فقط اسمح لي بسؤال، ما سبب هذه القطيعة؟
ـ لا أعرف، لا أعرف، انا أكرهه، لا لشيء، من حقي أن أكره، هذه مسألة قلب.

*

علا صوته، أحد المارة على الرصيف التفت إلينا، ظن أننا نتخاصم، تكاد الضحكة تملأ وجهي، أحاول السيطرة على نفسي.
أشد على يده مودعاً، يده ناعمة، لطيفة، متعرقة.

فوق سطح العمارة

ليتني حملت مفكاً كبيراً، كل من سأراه في الدرج سأبعج بطنه، قبل يومين فقط أو ثلاثة صعدت إلى السطح، سبعة أدوار صعدتها، وعليّ أن أصعدها الآن مرة أخرى، مئة وأربعون درجة، أي جار فعل هذا؟ سبعة أدوار، في كل دور أربعة جيران، وأنا والجار الذي قبالتي، ثلاثون جاراً، أي جار فعلها؟ وأيُّ شُحٍّ هذا؟!، حتى مصباح صغير لا يضعونه فوق الباب ليضيء الدرج!، لا بد أن تصعد في العتمة، تكاد تتقيّأ، روائح الأطعمة الدسمة والمبَهَّرة والحارة والمقلية تفوح مثل أبخرة تتصاعد من فم سكير معربد، ولا بد أن تتعثر بكيس قمامة، وفي المصرف تكاد تتقيأ من روائح الأوراق النقدية وأنت تعدّها، لا بد من أن تعدّها من وراء أمين الصندوق، يعدّها هو على العداد الآلي، وأنت تعدّها بأصابعك، والجارات الذكيات المعنيّات بالنظافة إلى حد الإفراط يضعن أكياس القمامة خارج الدار، على الدرج، لتتعثر، أو تمزقَ الكيسَ قطة عجفاء جائعة، وتنثر العظام واللحوم العفنة وعلب السردين على الدرج، ليت القطط تمزق الأكياس السود الصغيرة التي يحمل بها الزبائن رُزَم النقود، هي أكياس قمامة سوداء، يحملون بها رزم النقود السوداء، حقيقة هم أذكياء مثل جاراتي الذكيات، هي حقيقة قمامة الحياة وأوساخها، وهذا كرسي عتيق مسنده مكسور يضعه جارك العجوز أبو محمود في الدور الثالث ليرتاح قليلاً قبل أن يبلغ الدور الخامس، أبواب المصعد صدئة متآكلة، لا أحد يرغب في المشاركة في تصليح المصعد، وهذا باب إحدى الشقق في الدور السابع مفتوح،

يتدفق منه الضوء ملوّثاً بأبخرة الطعام، مثل أبخرة رزم النقود العفنة، هذه هي عادتهم تعرفها منذ زمن، منذ سبع سنوات، منذ سكنك في هذه العمارة، يطمئنون إلى أنهم في الدور الأخير ولا أحد يصعد إلى الدور السابع سواهم، لم أصادف في الدرج لا رجلاً ولا امرأة، ليس من امرأة في العمارة تستحق أن تقتحمها وتشدها إليك في تلك العتمة أو في هذا الضوء السخيف، القصيرة البدينة، أو المنتفخة البطن، أو المتهدلة الصدر، أو الضخمة العجيزة، هذه فيل وتلك كركدن وليس ثمة زرافة ولا غزالة، ولا حتى في الخيال، ليس لهن سوى هذا المفك أغرسه في صدورهن أو في مؤخرة الأزواج الأغبياء، وأنا الأغبى فيهم جميعاً، وليست زوجتك بالأفضل بينهن، بل هي الأسوأ، تأتي متأخراً في الخامسة مساء، لتجد الطعام لما ينضج، ثم تضع في فمك اللقمة الأولى وإذا هي كيس ملح، سبع ساعات في عملك وأنت بين قاعد وواقف، أناملك تتشنج وأنت تعدّ، عد، عد، عد، بدين يقول لك بدّل هذه القطعة الممزقة بغيرها، وأعور يقول لك أخطأت في العد، وأصلع يعرفك من مئة عام يشير لك بيده يريد أن تساعده على تجاوز الدور وقبض حوالته قبل الآخرين، وتمر بالسوق لتشتري الطعام ليوم غد، تصل في الخامسة وأنت مستنْفَد، مستهلَك، مطحون، لتجدها عند الجارة، وترسل الولد في دعوتها، وتقول سوف آتي، أنا أشرب القهوة مع الجارة، ليتني حملت مفكاً كبيراً، ليتني أحمله معي إلى المصرف، سأقطع الأشرطة كلها، لن أترك شريطاً موصولاً بإبرة اللاقط، قبل يومين أو ثلاثة فقط أصعد إلى السطح لأجد الشريط مقطوعاً، مشدوداً من إبرة اللاقط وملقى على السطح الأسود تحت الطبق الفضائي، ولا إرسال ولا قناة، واليوم أستيقظ في السابعة مساء، من قيلولة مزعجة، من كوابيس وأحلام ماعدت

أذكرها، لأجد التلفاز أعمى وأخرسَ وأطرشَ، ليس ثمة ما يسلِّي أو يُنسِي أو يريح، تريد أن تسمع أغنية، تريد أن ترى حلقة في مسلسل سخيف، ولا صوت ولا ضوء، والزوجة المباركة المصون ما تزال في المطبخ تجلي الصحون، لا تفكر في أن تأتيك بفنجان قهوة، أو لا تفكر في سبب انقطاع البث، مرة ثانية شريط اللاقط مقطوع من غير شك، وعليك أن تصعد إلى هذا السطح، إلى هنا، إلى غابة الأطباق الفضائية السوداء الصدئة المتفحِّمة كأنها أشباح في غابة استوائية تضج فيها كتل الخزانات، هذا للماء، صدئ يتسرب منه الماء، ذاك للمازوت، وهو يرشح منه، خزانات خزانات، حديقة حيوانات أخرى، خزانات سود مثل النمور وأطباق فضائية مثل الفيلة، تضيع بين ثلاثين طبقاً ملتوياً مثل آذان الفيل، وستين خزاناً مثل سيد قشطة غارق في الماء. ماهذا الضوء الفضيِّ اللين، يفرش أرض السطح، وما هذا الهدوء، سحابات رقيقة شفافة مثل قميص نوم من دانتيل لصبية حسناء يشف عن نهديها، البدر يطل من وراء السحابات البيض الشفافة كأنه بطن ناعمة صغيرة مدورة ضامرة لصبية في الخامسة عشرة، الأطباق نفسها تكاد تلتفت إليك مثل راقصات باليه تفرش تنوراتها البيض المتألقة، واللحن هادئ ناعم خافت لا تكاد تلمسه كأنه بسمة الموناليزا، والخزانات نفسها تمنح الضوء الفضي الهادئ حجمه مثل نغمة هادرة في ثنايا تلك الهمسات الناعمة من الأطباق الراقصة، أكاد أقفز لأبلغ تلك النجمات، ما أجمل هذه الرحابة، ماهذه السماء التي لا أراها في غرفة أمين الصندوق في المصرف العتيد، السماء والنجوم تظلِّلني مثل شعر أسود طويل معطر، في الإيقاع الهادئ يشتعل فجأة رنين الجوال، كم أنا أحمق، لماذا حملتُه معي، أصبح الجوال بطاقة الهوية، لا نتخلى عنه، حتى في الفراش إلى جانب الزوجة، أو

في الحمام مع روائح البول والغائط، أوه، هي زوجتي، أهلاً بك يا زوجتي، صوتك الآن يأتيني من سماء واسعة من خلال النجوم:

ـ التلفاز يعمل، انزل.

ـ وكيف عمل؟

ـ الخطأ منِّي، سامحني، اليوم مسحت الغرف كلها، الأرض والحيطان وقطع الأثاث، يبدو أني حركت الشريط في جهاز الاستقبال.

ـ لن أنزل، اصعدي، وهاتي معك القهوة...

ـ لن أصعد، أنا متعبة.

ـ لن تصعدي، ولماذا ياحبيبتي، نعم، حبيبتي، نعم، أهمسها لك من القلب، صدقيني، حبيبتي، أرجوك، انسَيْ، هي نزوة غضب، لن أنزل، أنا بانتظارك.

جئت من العمل، وأنا متعب مستاء مقهور مقموع، ملايين، مليارات، كل يوم تتسخ بها يداي، ليس لي منها شيء، عد، عد، عد، لا تخطئ، احرص، لا أتوقف ساعة، حتى في النوم وأنا إلى جوارك أعد، أخشى أن أخطئ في العد، أخشى أن تفلت من بين أناملي ورقة، وأنتِ متعبة أيضاً مثلي، أقدِّر تعبَك، أقدِّر أنكِ حبيسة أربعة جدران مثلي، في قبو عتيق، تحت الأرض، الرطوبة تأكلك، العتمة تمتص نضارتك، لا بد من إضاءة المصباح ليل نهار، وساعة وضعك ولدنا "سمير" قال الطبيب: "المولود في خطر"، قلت له:"أنقذ الأم أرجوك"، اغفري لي أيتها المرأة التي ليس لي في الكون كله من امرأة سواها، أنت النجمة والقمر والشمس، أنت السماء والأرض، أنت الضوء والظل، ليس لي سواك، اصعدي اصعدي، ما عدت أريد تلفازاً ولا أغنية ولا مسلسلاً، القمر هنا هو الأجمل، السطح هنا هو الأجمل، أنت هنا الأجمل، تعالي، الدرج صعب

وطويل ومعتم وخانق، ولكن اطمئني لن يفترسك أحد، الجيران كلهم طيبون، فقراء مثلنا، بسطاء، اطمئني، غداً زوري جارتك أم سناء، وأم جميل، وأم جورج، وأم محمود، وأم صلاح، ليتك تحضرين بساطاً عتيقاً، سجادة صغيرة، لنقعد عليها هنا معاً متلاصقين مستندين إلى خزان ماء، ينفحنا رطوبة منعشة، مختبأين تحت تنورة راقصة باليه، أجل ستضحكين، سنختبئ هنا تحت هذا الطبق الفضائي، لا أعرف هل هو لنا أم للجيران، ليس ثمة مشكلة، هاهو ذا عبق القهوة يصلني، الآن اكتمل النغم، تم اللحن، تحركت النجوم كلها لترشف هذا العبق الشهي، "هاتها من يد الرضا، جرعة تبعث الجنون"، ولكن أين فنجانك، تعالي، إلى أين سترجعين، فنجان واحد، أحسنت، يكفينا، نعم، أحسنت، فنجان واحد، ما زلت غاضبة مني، أسمعتك كلاماً قاسياً، فاحشاً، مزعجاً، نعم هذه هي المرة العاشرة، هي المرة العشرون، نعم ولدنا كبر، يفهم كل شيء، عمره خمس سنين، اعذريني، لا، لن تعودي، سأشرب وأسقيك، وتسقينني وتشربين، لن يدوم هذا الحزن ولا هذا الغضب، هنا سأغتصبك، شئتِ أم أبيتِ، ليت رجال الشرطة والأمن والجيش والحرس والدفاع والخاص والملكي والجمهوري يحيطون بنا، فلتهوِ العمارةُ كلُّها، فلتسقطْ كلُّ النجوم، فليُكْسَفِ القمر، هنا على السطح سأقبّلك وسأضمك إلى صدري، سنمارس الجنس معاً، نعم بين خزانات الماء الصدئة والمازوت الراشح على بلاط السطح الأسود البارد الملوث بالغبار والسخام والدخان وتحت عيون هذه الأطباق الفضائية وليتها تنقل فيلمنا الإباحي للعالم كله، القمر يكشفنا يعرينا، أعرف هذا الزعيق المزعج للجوال سيمنعنا من بلوغ الذروة، هو زلزال، سوف تنهار القوى وتسقط الأعمدة

وتنشق الأخاديد وتنطفئ النيران وتغمر الأمواه العالم وينطفئ كل شيء:

"بابا، انزل، انزل"

صوته يتهدج يختنق، يبكي، النجوم تهوي، أوراق النقود تتطاير، الزبائن يحطمون الساتر الزجاجي الهش، أنيابهم تنهش رزم النقود، أناملي تتساقط، بمفك كبير المدير يبعج بطني:

"ماما تملأ حقيبة كبيرة، ماما تقول لي ابق مع هذا الأب، لن تراني بعد اليوم"

أرمي بالمفك من يدي، وأهبط في العتمة على الدرج.

كرهت أبي كثيراً

كرهت أبي كثيراً، ولكن بعد ذلك، لا أعرف ماذا أقول، أشفقت عليه، حزنت، كرهته لأنه وعد، ولم يف بوعده.

*

قالت لي جدتي:

- هيا، إلى النوم، ستستيقظ باكراً، سنسافر إلى حمام الشيخ عيسى، مثل العام الماضي.

- قولي: والله.

- إن شاء الله.

- قولي: والله سنسافر.

- أبوك قال: سنسافر، وأمك جهّزت كل شيء، مع الفجر ستأتي السيارة لتأخذنا، هيا إلى النوم.

- كم سنبقى؟

- أربعة أيام.

النهر بين الجبلين ينساب هادئاً، أحاول الاقتراب منه، ولكنني أخافه، أبي يُلقي بنفسه فيه، ويسبح إلى الضفة الأخرى، التيار يحاول جرفه بعيداً، ولكنه يقاوم، ثم يعود، يقول لي: "تعال"، ولكن جدتي تصيح: "لا، والله، أخاف على الولد، كل سنة لا بد أن يخطف أكثر من ولد، هذا العاصي، ما هو بركة ولا بحر"، ويقول لأمي: "اخلعي عنه ثيابه، وهات الولد"، وأبادر بنفسي إلى خلع ثيابي، يمسكني أبي من يدي، أرتجف من الماء البارد، وأنا أضع قدمي في الماء، الحصى تحت قدمي قاسٍ، أكاد أنزلق، أبي يمسكني جيداً، النهر سريع الجريان، أمواجه تتدفق، أرتجف، جدتي تصيح: "الله يرضى عليك، هات الولد".

ماء البركة دافئ، بل حارّ، البركة مربعة، الأدراج على أطرافها تنحدر نحو العمق، لكنها على ما يبدو ليست عميقة، رائحة الماء كريهة، يقول لي أبي: "هي مفيدة، هذه مياه كبريتية، هي مفيدة للتخلُّص من الروميتازم، جئنا من أجل جدّتك"، أقعد أنا على الدرجة الأولى، قدماي تغطسان في البركة، أبي يلقي بنفسه في البركة، يسبح على طوله إلى الطرف الآخر، البركة مزدحمة، شباب وأطفال وعجائز، بعضهم يقعد على الأدراج، بعضهم يغطس، الجو ساخن، وبخار الماء يتصاعد، لا أعرف من أين يأتي الماء، بالتأكيد ليس من النهر، هو ساخن بل حار وكريه الرائحة، قال لي أبي:"هات المنشفة وتعال معي"، ما كنت أتوقع أن تكون الحمام على هذا الشكل، حسبتها مثل الحمامات في حلب، وإذا هي مجرد غرفة صغيرة مسقوفة، في داخلها بركة مربعة.

حمامات حلب مختلفة، أول مرة اصطحبني فيها أبي معه إلى الحمام كدت أختنق، هي في داخل سوق مسقوفة، نزلنا إليها على درجات كثيرة، دخلنا قاعة واسعة، في وسطها بركة ماء تسبح فيها الأسماك، صُفَّت على حافاتِها أصصُ الزهر والنراجيل، على الجوانب مصاطب عالية، يقعد عليها رجال، يلتف أكثرهم بمناشف بيض، يحتسون الشاي، وينفثون دخان النراجيل، جاءنا رجل بمئزر حريري أحمر، لف به خصري، انتعل أبي قبقاباً خشبياً عالياً، سرت أنا حافياً إلى جوار أبي، أمسكت يده، مضينا في بهو دافئ، عبرنا منه إلى الداخل، بخار الماء في الداخل كثيف، ثمة غرف صغيرة كثيرة على طول الجدران، فيها رجال يستحمون، قال لي أبي: "هذه الغرف هي الخلوات"، دخلنا إلى خلوة، وإذا فيها جرن حجري، ينصب فيه الماء من صنبورين، أحدهما ماؤه حار جداً والماء في الآخر بارد، في الجرن طاسة نحاسية مزخرفة،

صب أبي الماء على رأسي، وأخذت أستحم، شعرت بضيق في الحمام، كدت أختنق، طلبت من أبي أن نسرع في الخروج، أول دخولي إلى الحمام سررت، أعجبتني القاعة الواسعة والبركة والنراجيل، ولكن بعد ذلك كرهت الحمام، قال لي أبي:"يجب أن تعتاد على الحمام، غداً تكبر وتأتي إلى الحمام مع أصحابك، الشباب يأتون إلى الحمام، يمضون فيها ساعات، يحضرون معهم الطعام، ولاسيما الكباب المشوي، والفواكه"، لم يعجبني من الحمام سوى سقف الخلوة، هو قبة، فيها فتحات صغيرة مدورة مغطاة بزجاج ملون، تصطف على شكل دوائر دوائر، تبدأ بدائرة صغيرة في وسط القبة، ثم تتسع الدوائر شيئاً فشيئاً حتى تنتهي في أطراف القبة، كأنها دُرَرٌ في تاج ملك، قال لي أبي اسمها القَمَرِيّات، حقيقة هي مثل الأقمار، يتسرب منها الضوء ملوناً، مرة أخرى اصطحبني فيها أبي إلى حمام بجوار القلعة، قبل عام، هي المرة الأخيرة، الأحب إلى نفسي هو الاستحمام في عتبة الغرفة، في البيت، وأمي تصب الماء على رأسي، في الحمام أكاد أختنق.

أمي تتعب كثيراً من أجل استحمامي، في عتبة الغرفة توقد أمي وابور الكاز، تضع فوقه القدر المملوءة بالماء، وفي العتبة أستحم، تصب الماء فوق رأسي، ليس حاراً، هو دافئ، في الشتاء أحس بالبرد، الغرفة ليست كبيرة، وابور الكاز لا يمنحها الدفء، بل يملؤها برائحة مزعجة، ومع ذلك فالاستحمام في البيت أجمل، أمي لا تصب الماء الحار على رأسي، أمي تصب الماء الدافئ، الاستحمام في البيت ينعشني على الرغم من إحساسي بالبرد، في الحمام أشعر بالاختناق.

حمام الشيخ عيسى هي الأجمل، لولا رائحة الماء، أتمنى لو كان عندنا في البيت بركة صغيرة مملوءة بالماء الدافئ لأستحم فيها. وأضع رأسي على الوسادة، أرفع اللحاف فوق

رأسي، أغمض عينيّ، أحاول النوم، كبرت سنة، ذهبت إلى المدرسة، أنا الآن في الصف الأول، سنزور ثانية النهر، وسأصطاد السمك، سأحمل أوراقاً وأقلاماً ملونة لرسم الجبل والنهر. كم أشتهي أن أقود السيارة، كنت أراقب السائق وأنا إلى جوار أبي، أحس كأني أنا الذي أقودها، حين بدأت السيارة بالهبوط إلى الوادي أخذت جدتي تقرأ آية الكرسي، قرأت: "قل هو الله أحد"، كانت تذكر الله، وترجو السائق أن يتمهّل، قبل أن يبدأ بالهبوط قالت لأبي:" الله يرضى عليك، نصيحتي أن ننزل ونمشي على الأقدام"، قال السائق:" لا تخافي ياخالتي، أنا كل يوم أهبط على هذه الطريق وأصعد، أنا سائق على خط حلب حمام الشيخ عيسى". لم أشعر بالخطر ولا بالخوف، بل سررت، أحسست بالمغامرة، أطلّ على الوادي العميق من نافذة السيارة، وجدتي تقول لأبي:"أمسك بالولد"، كأنني سأسقط من النافذة، الطريق تنحدر بشدة، وهي ضيقة، وهي تهبط إلى أسفل الوادي، على شكل خطوط متعرجة منكسرة، الانعطافات حادة جداً وكثيرة، وحين تنعطف السيارة تحس أن العجلة الخلفية صارت في الفضاء، سيارة تتجه نحونا، السائق يأخذ أقصى اليمين، أطل من نافذة السيارة، وأنا إلى جوار أبي، في المقعد الأمامي، العجلة تكاد تكون معلقة في الهواء، النهر يجري في الأسفل، مثل شريط من فضة، يتألق تحت الشمس، يا إلهي كم هو جميل، وهناك زورق مشدود إلى كبل حديدي يمتد من الضفة إلى الضفة، والجبل ينهض مثل جدار تكسوه أشجار الصنوبر، والجبل الذي نهبط منه ينحدر هو الآخر مثل جدار، على يسار السائق أشجار الجانورك، الأغصان تميل نحو الأرض، محملة بحبات الجانورك الخضراء الزاهية، السائق يميل بسيارته إلى أقصى اليسار، يمد يده، يقطف حبات الجانورك، يناولني إياها، تقول له

جدتي:"لا يجوز قطف الجانورك، يجب استئذان صاحب الكرم"، يقول لها السائق:"هذه الأشجار تقع على الطريق، وجنيُها للمارة مسموح، بشرط أن يقطفوا للأكل، لا البيع والتجارة"، أمي تقول لأبي: "لاتنس شراء دبس الرمان، الدبس الذي اشتريناه العام الماضي ممتاز"، تعلق جدتي غاضبة:"صلّي على النبي، خلينا نصل أولاً بالسلامة، بعدها فكري بدبس الرمان"، يرد أبي:"إن شاء الله، سنشتري دبس الرمان وسنشتري العسل، العسل هنا نقي وصاف، وخال من الغش". على قمة الجبل المقابل أرى غرفة بيضاء صغيرة، تعلوها قبة خضراء، أسأل أبي:

ـ ما هذه القبة؟

ـ هنا ضريح الشيخ عيسى.

ـ ومن هو الشيخ عيسى؟

ـ وليٌّ من أولياء الله.

ـ ولماذا بيته في قمة الجبل؟

ـ ليس بيته، هو ضريحه، حيث قبره، الأولياء كانوا يتعبّدون الله في قمم الجبال، بعيدين عن الناس.

ـ ولماذا؟

ـ العبادة في قمة الجبل أفضل.

ـ أنت تعبد الله، أراك تصلي، لماذا لا تعبد الله مثله في قمة جبل؟

ـ سأذهب ذات يوم إلى قمة جبل، وسأعبد الله هناك.

ـ وهل تأخذني معك؟

جدتي في المقعد الخلفي تصيح بي:

ـ يكفي أسئلة، يا ولد.

ثم تعود إلى قراءة "قل هو الله أحد" بصوت مسموع، بين الهمهمة والتمتمة.

في الصباح استيقظت باكراً على صوت النهر، لم أستطع النوم، مضيت مع أبي إلى البستان، سرنا بجوار النهر، أمسك بيدي، وسرنا فوق الحصى حافيين، النهر يمتد، سرنا عكس التيار، الوادي ضيق، وعلى الطرفين ينهض الجبلان، الوادي يضيق، وينعطف، والنهر يتدفق أمامنا قادماً من المجهول، حيث الأشجار تتلاقى وتتكاثف.

- من أين يأتي هذا النهر؟

- من جبال لبنان.

- ما اسمه؟

- نهر العاصي.

بركة صغيرة إلى جوار النهر، ماؤها أبيض شفاف رقيق، بركة صغيرة جداً، لا تزيد عن عشرة أشبار طولاً وعرضاً، قاعها من رمل ناعم، فيه حصى بيض، الماء ينبع في فقاعات صغيرة ناعمة من بين حبات الرمل، كأنه رفّات عين، أو كركرات في خصر.

- من أين يأتي الماء؟

ـ يتسرب من النهر، هو نقي وصاف، اغرف بيدك منه واشرب.

أميل على النبع الصغير، أغرف منه وأشرب، عذب، رقيق، صاف، بارد، أبي يميل على البركة، براحتيه الاثنتين وقد كوَّرهما، يغرف لي، يدنيهما من فمي، ويقول لي: "اشرب"، من راحة يده أشرب، راحة يده كبيرة، شفتي تلمس يده الدافئة، رائحة يده عطرة، أبي دائماً يمسح يديه بعطر الورد، أشم رائحتهما صباحاً وأنا أقبل يده. أتأمل البركة، أهم بالدوس فيها بقدمي، لأرى الرمل وهو يتحرك في الفقاعات، ولكن أبي يمضي بي. الصباح بارد، النعاس يداعب عيني، الاستيقاظ الباكر جميل، أحس بقشعريرة، الضوء يملأ السماء، ولكننا لا

نرى الشمس، الشمس مختبئة وراء الجبل، لا شك أنها سوف تتأخر حتى تظهر. الوادي يضيق، النهر يتدفق بقوة، الموج له خرير أحس نحوه تارة برعب، وتارة أشعر بالسرور، أسير فوق الحصى، والماء يغسل قدمي، يتغلغل بين أصابعي، يغسلها، يدغدغها، أخشى السقوط في النهر، الموج سريع، أنا مطمئن إلى يد أبي، يده كبيرة، قوية، وهو يمسك بيدي بقوة.
ـ هل يخطف النهر أكثر من ولد كل سنة؟ مثلما قالت جدتي؟ ولماذا يخطفهم؟
ـ لا، هو لا يخطف أي ولد، ولكن الأولاد يسبحون فيه، أحياناً يتعب أحدهم، لا يستطيع مغالبة التيار، فيغرق.
أبي كبير، طويل، وأنا أسير إلى جانبه، أحس أني صغير، هو أطول مني بثلاث مرات، متى سأصير بطول أبي؟ جدتي تقول: "أنت قصير مثل أمك وأخوالك، لن تصبح بطول أبيك"، أشعر أن جدتي تستاء من ذلك، خطواتي السريعة لا تكاد تلحق بخطواته، أحياناً اضطر إلى أن أقفز، أو أعدو، كي أبقى إلى جانبه.
رائحة تراب، وقش يحترق، وخبز ينضج، أعرف رائحة الخبز، أعرفها جيداً، أحبها كثيراً، أبي يصطحبني أحياناً معه إلى الفرن، أو أذهب أنا إلى زيارته، أراه واقفاً في حفرة واطئة أمام بيت النار، النار تتوهج أمامه، وقد شمّر عن ساعديه، وهو يدفع برقائق العجين في بيت النار، يدفعها محمولة على رقاقة خشبية طويلة، لها ذراع طويلة، يمسك بالذراع ويدفع بالرقائق إلى النار، وجهه متوهج، ذراعاه متوهجتان، عندما ألقى بنفسه في النهر وأخذ يسبح قلت يريد أن يبترد من نار الفرن، يسحب الأرغفة الحمراء الناضجة برقاقة خشب أخرى، ذات ذراع طويلة، بأصابعه يدفع الأرغفة، ثلاث نسوة أمام تنور يعملن مثل أبي، ولكن في

تنـور، نقتـرب مـن بيـت طينـي، لـه قبـة، أرى بقـرة حمـراء، ترعى، ودجاجات تسرح، البقرة كبيرة، الدجاجات كثيرة، وثمـة ديك فوق مزبلـة، عرفـه أحمر، وعنقـه يتـألق، وذيلـه مرفـوع، أبي يقتـرب مـن النسـوة، يقـول لهـن: "علـى العافيـة"، إحداهن تلتفت إلينا، ترحب بنا، تمد يدها داخل التنـور المتـوهج، تستل رغيفاً ساخناً، تناول أبي الرغيف، يقطع منه لقمة، يضعها في فمـه، ثـم ينـاولني إيـاه، "خـذ كُـلْ، سـمِّ بـالرحمن"، الرغيـف ساخن، طعمه لذيذ، يقول للمرأة: "نحن في غرفة أبو علي، نريد الإفطار على ذوقك"، يفتح محفظة نقوده، يناولها قطعتين ورقيتين كبيرتين، وجهها مورّد، بل أحمر، ساعداها أبيضان محمـرّان، وقـد رفعـت الثـوب عنهمـا، "الله يرزقـك ياحـاج"، لهجتهـا حلـوة، أبـي يقتـرب مـن البقـرة، هـي كبيـرة، أخافهـا، تلتفت نحونا، تمضغ شيئاً في فمها، ضرعها كبير ممتلئ.

ونرجع، نـاولت الرغيـف إلـى أمـي وجدتي، لـم آكل منـه سـوى لقيمات.

بـدأ النـاس يسـتيقظون، صـبايا يمشـين بمحـاذاة النهـر، أطفـال يتبـارون فـي رمـي حجـارة، لعلهـا تسـقط فـي الضـفة الأخـرى، ولكنهـا تسـقط فـي النهـر، رجـل قاعـد علـى ضـفة النهـر وبيـده قصـبة طويلـة، يرفعهـا إلـى أعلـى يتـدلى مـن طرفهـا خـيط، ليغوص في النهر.

ـ هل في النهر سمك؟

ـ كثير.

ـأريد أن أصطاد.

ـ سأشتري لك صنارة، وسيكون السمك المشوي غداءنا.

ـ وهل ستصطاده؟

ـ لا، سنشتريه.

أول مرة أذوق فيها العسل، لذيذ حقاً. صينية نحاسية مدورة كبيرة، جاءت بها القروية تحملها على رأسها، وضعناها على المصطبة أمام الغرفة، مصطبة إسمنتية طويلة تطل على النهر، ولا تبعد عن الضفة إلا بضعة أمتار، وعلى طول المصطبة تصطف غرف، كنا ننام في إحدى الغرف، على النافذة شبك معدني، لم أنم جيداً، الرقص والأغاني والصخب يملأ رأسي، ولكن لا أعرف كيف نمت، استيقظت على صوت النهر.

سهرنا لا أعرف إلى متى، غلبني النوم، فنمت، القمر أطل علينا من قمة الجبل، انعكست صورته على الموج المتدفق، على الضفة الناس يسهرون، الأغاني تصدح، يتردد صداها بين الجبلين، رقص وغناء وطرب، أنا متأكد أن كثيراً من الناس لم يناموا.

تحلّقنا حول الصينية الكبيرة، أبي وأمي وجدتي وأنا، العسل لذيذ، له نكهة ورائحة، ليس حلواً فحسب، بل له رائحة مميزة، ولونه أصفر جميل، بدأت الشمس تطل علينا، الخبز شهيٌّ جداً، حبات الزيتون ليست كالزيتون الذي نأكله في البيت في حلب، هنا أشهى، حتى الشاي مختلف، إبريق الشاي من معدن، وهو كبير، الكاسات كبيرة، البيض المسلوق ساخن وشهي، الأصفر فيه مائل إلى الحمرة، له رائحة مختلفة، الجبن مالح، ولكن مذاقه مختلف، كل شيء هنا مختلف، الحليب له رائحة نفّاذة، هي رائحة العشب والأرض، يترك أثره على زجاج الكأس من الداخل.

ـ هنا لا يعرفون الغش.

هكذا تعلّق جدتي.

ـ مهما أكلنا فلن نشبع.

هكذا تقول أمي. تعلّق جدتي:

ـ اتركي موضعاً للغداء.
يقول أبي:
ـ الغداء متأخر.
أمّي مورّدة الوجنتين، ذهبت في غيابنا باكراً إلى الحمام واستحمت، للنساء حمام خاصة مثل حمام الرجال، هكذا حدثني أبي، بركتها صغيرة.
ـ هل تعرف أمي السباحة مثلك؟
ـ لا، هي تقعد على الدرجات، وتغطس في البركة.
جدتي فيما يبدو لم تستحم. أبي يسألها:
ـ كيف وجدت الحمام؟
ـ دافئة، غطست أقدامي فيها، حتى الركب.
ـ أنا جئت لأجلك يا أمي، هي مفيدة من أجل ركبك، تمتص الروماتيزم.
ـ الله يرضى عليك يا ولدي.
نركب في الزورق، أبي وأمي، وأنا، يركب معنا عشرة أشخاص، جدتي تبقى في الغرفة، قبل أن نغادر قالت لأمي: "لا تنسَيْ، ادخلي في الشجرة، واقعدي فيها، هذه شجرة مريم"، الزورق مشدود بحلقة إلى كبل معدني، رجل عجوز يشد الكبل بكلتا يديه، فينزلق المركب في عرض النهر، حتى يبلغ الضفة الأخرى، ننزل.
الجبل أمامنا صاعد، نأخذ في ارتقائه، صخور وأشجار وأشواك وأصوات طيور، نبلغ شجرة كبيرة، جذعها ثخين، جوفها فارغ، منخور، سيدة تدخل في جوفها، تقعد قليلاً ثم تخرج، تدخل بعدها أمي، تقعد قليلاً، أبي يساعدها على الخروج.
ـ لماذا دخلت المرأة في جوف الشجرة الفارغ، لماذا دخلت فيها أمي؟.

ـ هذه الشجرة للبركة، المرأة التي لا تحمل تدخل في جوفها ثم تخرج، من أجل الحمل.
ـ ولكن أمي حملت بي.
ـ لم تحمل بعدك، أصبح عمرك ست سنين، نريد ولداً آخر.
عندما كنا في السيارة، وهي تنحدر بنا في الطريق الضيقة، سمعت جدتي تقول لأمي، وهما في المقعد الخلفي:"هذه الزيارة لحمام الشيخ عيسى هي لأجلك، يجب أن تدخلي في شجرة مريم في أعلى الجبل، اقعدي فيها ساعة، حتى تحملي، نريد ولداً آخر، الولد صار عمره ست سنين، قبله أسقطت ولدين، حملك صعب، أنت سبيعية، أنت لا تحملين إلا كل سبع سنين مرة، حتى ولادتك صعبة، كان سيموت، لولا فضل الله، وشطارة الداية، ادعي الله وأنت في قلب شجرة مريم"، كانت جدتي تهمس بهذه الكلام لأمي، وأمي صامتة لا تتكلم.
ـ أنا عمري ست سنين، وأنت كم عمرك، يا أبي؟.
ـ حوالي خمس وأربعين سنة.
ـ متى سأصبح في عمرك؟
تعلق أمي:
ـ ستصبح في عمر والدك عندما يصبح والدك في عمر جدك، ثمانين سنة.
حبال تدلت من الشجرة، أطفال صنعوا منها مراجيح. بنت في عمري تركب في أرجوحة، أخوها وراءها يدفعها بقوة، الأرجوحة تطير بها عالياً، ثوبها ينكشف عن فخذيها، وهي تحاول سترهما بطرف ثوبها، أشعر بأن ثمة شيئاً غير طبيعي، غير مريح، أدير وجهي، أخشى أن ينتبه أبي إلى أني رأيت المشهد. أبي يصلّي دائماً، وأنا أحس أنه لا ينظر إلى النساء. كان معنا في الزورق ثلاث نسوة، عدا أمي، غير محجبات، أبي لم ينظر إليهن، كان يتطلع إلى النهر، الرجل العجوز وهو

يشد الكبل، كان يمازحهن، وهو ينظر إليهن، كان لا يرفع عينيه عنهن، قال لواحدة: "تعالي جربي شدي الكبل". أمي متحجبة، تضع على رأسها منديلاً زاهي الألوان وتعقده أسفل ذقنها، أمي أفضل من النساء اللواتي لا يضعن غطاء على رأسهن، وهي أجمل. جدتي تضع منديلاً أسود على رأسها، وتدنيه فوق جبينها، يظلل عينيها، وتعقده أسفل فمها، فلا تظهر ذقنها، وهي دائماً تذكر الله، ولها سبّحة سوداء طويلة لاتفارق يدها، أنا أضجر من تمتمتها وحركة شفتيها وهي تسبّح، أملّ من حركة إصبعيها بين حبات السبّحة.

ـ لم نصل إلى القمة، نسينا زيارة قبر الشيخ عيسى!

ـ غير ضروري، ولا نريد ترك جدتك وحدها، نخشى أن تضجر.

هكذا يجيبني أبي، ونحن ننحدر من الجبل.

ـ هل جئنا إذن من أجل أمي وشجرة مريم؟

ـ لا، جئنا للنزهة والتسلية.

ـ هل قصة الشجرة صحيحة؟ وهل قعدت فيها مريم؟

ـ لا، هي حكاية.

سوف أستيقظ باكراً، لاشك سوف أسمع صوت السيارة، عندما أيقظني أبي العام الماضي قفزت من السرير، شعرت بسرور كبير، وإن كنت بحاجة إلى النوم، شعرت كأنني في حلم، وحين خرجت من البيت كانت السماء معتمة، مع خروجنا من حلب كان الضوء قد بدأ يملأ الدنيا، ثم رأيت الشمس وهي تظهر من وراء الأفق، أشعتها خيوط من فضة وخيوط من ذهب، مشهد جميل، تتغير الألوان والأشكال بين لحظة وأخرى.

السيارة تنطلق وأنا إلى جوار أبي، قرب النافذة، والشيخ عبد الباسط عبد الصمد يتلو آيات من القرآن الكريم، هدهدة السيارة وهي تنطلق مع الصباح ممتعة، ثمة برودة منعشة،

النعاس يغلبني. جدتي وأمي في المقعد الخلفي، وإلى جانبهما أكياس كثيرة كان لا بد من حملها. عند نزولنا في حمام الشيخ عيسى قال أبي للسائق:

ـ عد إلينا يوم الإثنين، أي بعد أربعة أيام.

السائق ساعد أبي على حمل الحاجات إلى الغرفة، أبي ناوله قطعة ورقية كبيرة، أراد السائق أن يرد إليه شيئاً من محفظة نقوده، لكنه قال له: "اترك البقية لك"، كذلك قال للمرأة عندما جاءت لتأخذ الصينية وبقية الطعام، في المدرسة قال لي الطالب الذي يقعد إلى جواري، وهو يلكز بطرف حذائه المهترئ طرف حذائي: "حذاؤك جديد، ماذا يعمل أبوك؟" قلت له: "فرّان"، يمطّ شفتيه، يقول:"أبوك غنيّ، عنده فرن"، أقول:"لا، أبي يقف أمام بيت النار، هو أجير، الفرن ليس ملكه"، فهمت قصده، قلت له: "أنا وحيد، أمي تشتري لي دائماً أشياء جديدة، وغالية، وجدتي تحبني كثيراً، تحبني أكثر من حبها لأبي، هي تخاصمه لأجلي".

ـ كم سنمضي يا أمي.

ـ مثل العام الماضي، من الخميس إلى الإثنين.

ـ والمدرسة؟

ـ هل نسيت؟ عندك يوم السبت عطلة ١٧ نيسان، عيد الجلاء.

ـ والأحد والإثنين؟

غياب يومين ليس مشكلة، يحق لك غياب أكثر من عشرة أيام، وأنت لم تغب من قبل.

قبل عامين حملني أبي على كتفه، وقفنا في الزحام، أطللت من فوق كتفه على العرض العسكري في شارع القوتلي، رتل من الدبابات يمر أمامي، تزمجر، عجلاتها حديدية ثقيلة، الجنزير يلف ويدور، يترك أثره في الإسفلت الأسود، الجند يسيرون بنظام، حركة أيديهم جميعاً منضبطة، وقع أقدامهم على

الأرض قويـة، تهـبط كلهـا فـي وقـت واحـد، الزحـام علـى الرصيفين شديد، والناس يطلون من النوافذ، الشرفات ممتلئة، ثمة واجهة كبيرة فيها صور نساء.

ـ ما هذا البناء، يا أبي؟

ـ هذه سينما حلب، وهذه سينما فؤاد، نحن في شارع القوتلي.

ـ ومن هو القوتلي؟

ـ هو رئيسنا، هو رئيس سورية.

ـ هل تركت الفرن لأجلي؟

ـ عملت من الساعة الحادية عشرة ليلاً إلى العاشرة من هذا الصباح، ثم جئنا إلى هنا.

أبي مشى بي من بيتنا قرب الجامع الأموي، مررنا بساحة باب الفرج، وقفت أمام الساعة، سألني:

ـ هذه ساعة باب الفرج، كم الساعة الآن؟

قلت له:

ـ العاشرة، والثالثة.

ضحك، شد على يدي، قال:

ـ هي العاشرة والربع.

ثم دخلنا إلى محل الحلويات، مقابل سينما فؤاد، حيث نقف الآن، تناولنا صحن حلاوة بالجبن، الحلاوة مجرد رقائق شفيفة من العجين الناعم، فيها خيوط من جبن، كأنها قماش فيه خيوط من فضة، هي لذيذة جداً، شهية، بعد تناولها اشترى أبي كيلو، قال لي:

ـ سنأكل منها في البيت، من أجل أمك وجدتك، من أجل أمك وأمي، لا يجوز أن نأكل نحن وحدنا.

قلت له:

ـ أعطني إياها لأحملها.

ـ لا، سأحملها أنا، أنت ستتفرج على العرض العسكري، ولكن قبل دخولنا إلى البيت ستحملها أنت، ستناولها أنت لجدتك.
ـ ولماذا هذا العرض؟
ـ بمناسبة عيد الجلاء، عيد استقلال سورية، وجلاء المستعمر.
ـ ومتى كان هذا؟
ـ قبل تسع سنوات بالضبط، عام ١٩٤٦، نحن الآن في عام ١٩٥٥.
كان هذا قبل عامين، وحين دخلت على جدتي، ناولتها حلاوة الجبن، فرحت كثيراً، تناولتها من يدي، ثم قبَّلَتْ يدي الصغيرة، ثم قالت: "الله يرزق بابا"، أمي وضعتها في صحون ووزعتها علينا.
سأنام، سأحلم، ترى هل سأرى في الحلم الطريق الهابطة إلى الوادي وأسمع جدتي وهي تذكر الله وتسأله السلامة؟
وتسأل جدتي وهي في المقعد الخلفي:
ـ كم بقي لنا حتى نصل إلى حمام الشيخ عيسى؟
ويرد السائق:
ـ خرجنا من حلب في الرابعة والنصف تماماً، أنا صليت الفجر في الرابعة في الجامع الأموي بجوار بيتكم، ثم جئت إليكم، أهنئكم بالسكن إلى جوار الجامع، انطلقنا في الرابعة والثلث، الساعة الآن الخامسة والنصف تقريباً، نحن على مشارف جسر الشغور، قطعنا حوالي مئة وعشرين كيلومتراً، بقي أقل من خمسين كيلو متراً، في أقل من نصف ساعة نصل إلى حمام الشيخ عيسى بإذن الله.
جدتي طوال الطريق تسأل: "هل هذه حقول قمح أم شعير؟ هل هذه القرية خان العسل أم خان شيخون؟ هل مررنا بمعرة النعمان؟"، ويرد السائق: "نحن لا نمر بالمعرة"، أو تعلق،

كأننا عُمْيٌ لا نرى، وهي تصف لنا الطريق: "أشجار اللوز زهرت، هي جميلة، الموسم السنة جيد، ما شاء الله، بيوت هذه القرية طينية، سكانها فقراء، هذا ولد صغير يرعى الغنم ويخرج من الحقل إلى الطريق العامة، كيف تركه أهله وحده؟".

جدتي تقول لأبي:

ـ اللحم في جسر الشغور جيد، اشتر اللحم من الجسر.

السائق يعلق:

ـ اللحم في الشيخ عيسى أكثر، وأرخص، كل يوم يمكن أن تشتروا، وأمامكم النهر، السمك كثير، هناك مطعم أبو مازن، يمكن أن توصوه، يأتيكم السمك الجاهز، المشوي أو المقلي.

أمي صامتة لا تتكلم. الطريق مسلية حقاً، السهول خضراء، أو حمراء محروثة، تمتد قطع الأراضي وتتجاور مثل بساط ذي ألوان مختلفة. جدتي وهي في المقعد الخلفي تهز السائق من كتفه، تصيح:

ـ شاحنة قادمة باتجاهنا، سائقها أعمى أو نائم، انتبه، انتبه.

أبي يلتفت إليها، ويقول:

ـ أمي، أرجوك، اتركي الرجل يسوق على راحته، هو منتبه ويعرف عمله، لا تنبهيه، حتى لا يرتبك.

وترد:

ـ أنا أخاف على الولد، لا عليك.

وتصمت، ثم تقول لي:

ـ تعال، اقعد إلى جواري.

وأرد:

ـ لا، سأبقى إلى جوار أبي، أريد رؤية الطريق.

فيروز تغني:

طلعت ياما حلى نورها ... شمس الشموسه
يا الله بنا نعجن ... ونحلب لبن الجاموسه

النغم ينساب مع انسياب السيارة وانطلاقتها، يمتد في السهول المنبسطة هادئاً جميلاً، كأنه اللون الأخضر الممرع، أحس به يدغدغني مثل زهرات النرجس الصفراء، ولكن ما هي الجاموسة؟ هل هي البقرة؟.

جدّتي تعلق:

ـ ابحث لنا في المذياع عن محطة للقرآن الكريم، لا نريد الغناء مع الصباح.

السائق يضع شريطاً في المسجل، وينساب صوت المقرئ يتلو:"الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان".

جدتي تعلق:

ـ الله يرضى عليك يا ولدي، هذه أحب سورة إلى قلبي، أمانة اقرؤوها على قبري.

السائق يعلق:

ـ بعد عمر طويل ياخالة، هذا الشيخ محمد رفعت، هذا تسجيل نادر، وضعته لأجلك.

أكاد أختنق، أنا لا أتنفس، أمي إلى جواري، يدها فوق عنقي، يدها ثقيلة، وهي تغط في النوم، أحاول رفع يدها عن عنقي، أحس أني سأموت، لماذا تريد أمي موتي؟ هل حقاً كنت سأموت وهي تلدني؟ أدفع يدها بقوة، أدفعها، لكن يدها ثقيلة، أناديها، وهي لا ترد، أختنق، ألفظ الروح، وبقوة أدفع يدي، وأنتفض، أمي ليست إلى جواري، أنا في الفراش وحدي، بل في الغرفة وحدي، لا في سيارة، ولا في سفر، ما هذا الكابوس؟.

وأنهض، في البيت جلبة وضوضاء وصراخ، أسرع إلى الغرفة الأخرى، جدتي تولول وتصيح، تضرب وجهها بيديها، أمي تنتحب تبكي، عمي يضمني إلى صدره، سمعت جدتي وهي تقول: "لاتقولوا له أي شيء، قولوا له: أبوك راح إلى

حمام الشيخ عيسى، سبقنا، ونحن سنلحق به، قولوا له راح يحجز لنا غرفة، وسيرجع مساء أو في الصباح ليأخذنا معه"، عماتي الثلاث يلبسن الأسود، الدموع تسيل من العيون، ما الذي جاء بكل هؤلاء، لماذا امتلأ البيت، لعلي لم أنم، ما زلنا في الليل، لم يحن الفجر، لم تأت السيارة، أين أبي؟. في غرفة مجاورة أبى مسجى، مغطى بملاءة بيضاء. هل هذا حلم؟ هل هو واقع، لا، هو حلم، ستأتي السيارة، وسوف نسافر إلى حمام الشيخ عيسى، اليوم مساء، أو غداً صباحاً، ولكن لماذا لم نذهب معه مباشرة، كما في المرة الماضية؟. بعد ساعة تمتلئ الدار بالجيران والأقارب والأهل، أخوالي وعمي والجيران، موكب من السيارات تسير، وأنا إلى جوار عمي في السيارة. في الليل لم أنم، زوار كثر جاؤوا ثم راحوا، ثم نمت، أسمع صوت المفتاح يوضع في باب الدار، الباب يفتح، أبي سيأتي، أسمع صوت سيارة، يمر يوم يومان ثلاثة، مرت أيام، أبي لم يف بوعده. جاؤوا بصندوق طويل، وضعوا فيه أبي ملفوفاً بقماش أبيض، المقبرة مزدحمة، يلتفون حول قبر، أنزلوا أبي هناك في حفرة، رجعنا إلى البيت، الصورة أصبحت تملأ رأسي، أصبحت الصورة أوضح، لم يكن حلماً، كان واقعاً، السفر هو الحلم، حمام الشيخ عيسى هي الحلم، عرفت أن أبي لن يأتي مساء، لن يأتي صباحاً مع الفجر يحمل لنا الخبز الساخن من الفرن.

*

كرهت أبي لأنه لم يف بوعده، لم يأخذنا ذلك العام إلى حمام الشيخ عيسى، لم نذهب بعد ذلك إلى حمام الشيخ عيسى أبداً، أصبحت زيارتها ذكرى، أسترجعها، فأكره أبي، ثم أشفق عليه، ثم بدأت أعرف معنى الحزن.

صحن الفاكهة يتوسط المائدة، إلى جانب إبريق ماء زجاجي نظيف متألق، والكاسات النظيفة تتوزع أمامهم، وهم يلتفون حول المائدة، إلى جوار البركة العتيدة والماء يتطاير من النافورة رذاذاً ناعماً، تحت شجرة التوت الكبيرة، وجذعها يدلّ على عمرها الممتدّ في عمق السنين، والنسمات الصيفية الناعمة تداعبهم، تحمل إليهم أصداء أغنية جديدة لأليسّا.

ـ ما هذا الكلمات؟ ما هذا الغناء؟! لا معنى له.

ـ وما هذا الضجيج، لا نغم ولا إيقاع.

ـ أين أم كلثوم؟!

ـ الله يرحم أيام زمان.

ـ هذا الكلام كله غير صحيح، الآن لو تحضر الآن هذه المطربة، وتقعد معكم لاختلف كلامكم كله.

ـ والله لو جاءت لرأيتني أول من يغادر هذا المكان.

ـ والله، لو جاءت لكنت أنت أول من ينهض ويعطيها محلّه.

ـ هذا الاختلاف كله من أجل هذه الشلة من الشباب المائعين القاعدين هناك أمامنا.

ـ أفسدوا الجو علينا برائحة المعسّل.

ـ قمامة تحترق.

ـ لو كانت صدوركم تتحمَّل هذا المعسل ما قلتم هذا الكلام.

ـ أين كان هؤلاء لما كانت صدورنا تحتمل التنباك العجمي؟ الله يرحم أيام زمان.

*

أنا أعرف، هؤلاء لا يطلبون لا القهوة، لا الشاي، لا السيكارة، لا النارجيلة، حتى صحن الفاكهة لابث أمامهم للتأمل والفرجة،

لا ليتناولوا منه أي شيء، سأطوف عليهم، أسألهم ما يطلبون، وأنا أعرف أنهم لن يطلبوا سوى كأس من الزهورات، حين ينصرفون سيتركون لي صحن الفاكهة، سأحصل على بخشيش جيد، فهم كرماء، هذه هي جلستهم الأسبوعية، في أشهر الصيف الثلاثة، الله يرحم أيام الشباب، أطوف عليهم بالنراجيل وقطع الفحم المتوهجة وفناجين القهوة والعبق الفاغم يضوع منها، هم ليسوا برواد المقهى فقط، هم أصحابي، هم أركان المقهى، الله يرحم أيام زمان. نفسي تحنّ إلى رائحة التنباك، أصابعي تشتاق إلى عصره، لتصطبغ بلونه الأصفر الداكن المائل إلى الحمرة، أنام وأنا أشم العبق، روّاد اليوم كلهم شباب لا يطلبونه، يطلبون المعسّل، برائحة التفاح، هو عطر مصنّع من مواد كيماوية، هكذا أصبحت الأذواق، رائحتُه من بعيد مُغْرِية، وأنا لا أحبّه، يحرق الحنجرة، أين هو من التنباك؟ أين التنباك العجمي، كل واحد من هؤلاء الرجال كان له كيس تنباكه الخاص، ونارجيلته الخاصة، يحضرها معه في حقيبة جلدية، ولا يقبلون إلا بقطعة فحم من خشب الجوز المعتَّق، هذا الجيل لا يفرق بين قطعة الفحم من خشب الجوز، وقرص الفحم المصنع من بقايا الزيتون المعصور والمخلوط بالزرنيخ، وهو الأسرع في الاحتراق والأسهل، حتى هو أسهل بالنسبة إليّ أنا، ولا يكلف صاحب المقهى مثلما يكلفه الفحم. حقيقة، أولئك العجائز أصحاب المقهى، هم رواده من أيام الشباب، هم صحبة العمر، ولا يبخلون عليّ، ولكن، على كل حال هؤلاء الشباب أفضل، هؤلاء الشباب يأتون كل يوم، وسهرتهم تطول، ويطلبون القهوة والشاي ثلاث مرات وأربع مرات، وبخشيشهم أكثر، ولكن خسارة، سوف أخسر هؤلاء وهؤلاء، لا أعرف ماذا أفعل، ولا أعرف إلى من أتحدث، هل أتحدث إلى هؤلاء

الشباب، وهم مثل أحفادي، أم هل أتحدث إلى أولئك الشيوخ العجائز، وهم في عمري، هم أصحابي، إلى من أشكو؟ إلى من أبوح؟ بل كيف سأخبرهم؟ ماذا سأفعل؟.

*

أبو جميل يصل متأخراً، بقامته المديدة، وشعره الأبيض المصقول، وحذائه اللامع، وهو يشد ظهره، كأنه في الخمسين لا في الثمانين يهم الجميع بالنهوض لاستقباله، ولكنه يلح عليهم ألا ينهض أحد.

ـ تأخرت علينا؟

ـ مررت بابني جميل، أرجوكم، إذا حكيت لكم، لا تسخروا مني.

ـ معاذ الله، تكلم أبو جميل، حدثنا.

ـ كل يوم أتصل به بالهاتف، أو آخذ سيارة أجرة وأسرع إلى عيادته، أو أتصل به بالهاتف وأقول له اترك العيادة وأسرع، لا تتأخر، اترك كل المرضى.

أبو أحمد يهز رأسه الكبير الأصلع، واللغد المتهدل تحت ذقنه يترجرج مثل لغد الديك الرومي، يسأل:

ـ خير، ومن أي شيء تشكو، حدثنا، يمكن تفيدنا، أونفيدك، نحن بعمر واحد، والحال من بعضه.

أبو سامر يتكئ على عصاه، يزداد ظهره انحناء، تبرز حدبة في ظهره، يمد عنقه الناحل إلى أمام، يلوك لسانه في فمه، كأنه يثبت طقم أسنانه، يتكلم بصوته الهادئ:

ـ مثل ما قلت، الحال من بعضه، لا تسأله، ولا تحرجه، أمراضنا بهذا العمر واحدة، كلها في النصف الأسفل، العقل مثل الكومبيوتر، والباقي آلات تكسَّرت فيها المسننات كلها.

ويرد أبو جميل، وهو يمسح بيده على شعره الأبيض المصقول، كأنما يخشى أن تعبث به النسمات الناعمة، فيقول:

ـ الحمد لله، أنا كلي بألف خير، من فوق ومن تحت.

يضحك أبو وليد، يقهقه، تتراقص بطنه الممتدة أمامه كأنها بالون مملوء بالماء، يعلق:
ـ إذا كان كل شيء فيك على خير مايرام، فلماذا هذا الإزعاج لابنك، كما قلت أنت، كل ساعة هاتف وزيارة، وتطلب منه ترك العيادة والمرضى والحضور إلى طرفك الكريم؟ هل هو دلال أو حق الأب على الابن؟ أم هل هو مرض؟
يتقلقل أبو جميل في مقعده، يتنحنح، يمد قدميه، ويهز حذاءه اللامع، ثم يتكلم:
ـ الحقيقة لا دلال ولا مرض ولا حق الأب على الابن.
ويمد أبو سامر عنقه الناحل أكثر، كأنه يريد أن يدنو من صاحبه ليسأله:
ـ إذن، ما هو، تكلم، حتى نعرف.
يرجع أبو وسيم بظهره إلى وراء، كأن الكرسي الخشبي العريض يضيق بجسمه الضخم الممتلئ، يضع يده على مسند الكرسي الخشبي، يحرك بأصابعه حبات مسبحته، ويتكلم:
ـ اسمحوا لي بالتدخل، هذا شيء طبيعي، أنا كل يوم أتصل بابني وسيم، مرة أو مرتين.
أبو وليد يتكلم وبطنه تتراقص مع كل حرف ينطق به:
ـ ابنك محامي، وعن أي شيء سوف تسأله؟ وهل ترتكب كل يوم جريمة؟ أو هل تبيع كل يوم قطعة أرض أو توقع على عقد إيجار جديد؟.
أبو وسيم يضحك، ولكن لا يخرج عن وقاره، كأن جسمه البدين الممتلئ الذي يضيق به الكرسي لا يسمح له بذلك، ويرد:
ـ صدقوني ياجماعة، الأمر مختلف، إذا صارحتكم فسوف تضحكون، مرة اشتريت علبة لبن، وجئت إلى البيت، وإذا اللبن حامض، فوراً اتصلت بابني وسألته، هل يمكن رفع

دعوى على البائع؟ وكم ستكلف وهل يمكن أن أربحها؟ وقبل يومين كنت سأشتري غسالة جديدة، الغسالة التي عندي صلحتها عشر مرات، فاتصلت به وسألته ما رأيك في حضور شراء الغسالة والإشراف على كتابة عقد الشراء، وضمان الكفالة ثلاث سنوات.

أبو أحمد يرفع رأسه الأصلع إلى أعلى، اللغد المتهدل تحت ذقنه يترجرج، وهو يعلق:

ـ إذا كان الأمر يتعلق بشراء غسالة، فهذا أمر طبيعي، ومن حقك، أنا بصراحة خشيت أن يكون الأمر يتعلق بشراء حذاء.

أبو وليد وهو يملأ الكرسي بجسمه البدين يعلق:

ـ صدقني شراء الحذاء يحتاج إلى عقد وكفالة، أكثر من شراء غسالة، والسبب كله في هؤلاء الشباب القاعدين هناك أمامنا، كنا نشتري الحذاء فيخدمنا عشر سنين، الحذاء الآن لا يخدم سوى شهرين أوثلاثة، صناعة رديئة، وكل يوم موديل جديد، نعرف الحذاء إما أسود أو بني اللون، اليوم هناك حذاء أحمر وحذاء أخضر وحذاء أصفر، لم يبق إلا تصنيع حذاء للرجال بكعب عال ورفيع.

أبو سامر يمد عنقه الناحل مثل ديك يريد أن يصيح، يلوك لسانه في فمه، يثبت طقم أسنانه، ويتكلم:

ـ سؤال الولد كل يوم عن القانون، وسؤال الولد كل ساعة عن الصحة مرض، اسمه الوسواس القهري.

أبو وسيم يدق بيديه الاثنتين على مسندي الكرسي، وقد ضاق الآن الكرسي العريض بجسمه، وكاد يتحطم، ويصيح:

ـ لأ، ما هو وسواس، هذا كله بسبب الغش والفساد، حتى الطعام الذي نأكله، حتى التفاحة التي نتناولها، لذلك من حقي ومن حق أبو جميل ومن حقك أنت يا أبو سامر ومن حق

الجميع أن يتصل كل واحد منا بابنه أو صديقه ليسأله، ويستعين به، الغش في كل مكان.
ويتقدم النادل، حاملاً كؤوساً صغيرة متألقة، يشع فيها مشروب أصفر ساخن، يضوع منه شذى الزهور، وهو يهتف:
ـ الله لا يحيجنا لا إلى ولد ولا إلى صديق، تذوقوا هذا العسل، هذا والله عسل، وأطيب من العسل، وأرخص من العسل، وأنفع من العسل، فيه كل أنواع الزهور، لهذه الباقة من الزهور.
يصمت الشيوخ العجائز، يدركون أنهم قد رفعوا صوتهم، وأن النادل قد سمع حديثهم، ولكن لا مشكلة. أبو سامر يغمغم:
ـ نحن زهور؟! الله يقصف عمرك يا أبوعدنان، يا وجه البوم، طول عمري ما كنت أتمنى رؤيتك، مثل زوجتي، أمضيت عمري كله معها، وأنا أكرهها، دائماً أقول للأصحاب ابحثوا لنا عن مقهى آخر، أبو عدنان يتجسس علينا، في كل مرة آتي إلى المقهى أرجع وأنا نادم، الله يقصف عمرك، يا أبو عدنان، قال: نحن زهور، نعم، نحن زهور ذابلة.
ويتكلم أبو جميل بهدوء وثقة، وهو يشد ظهره، ويمد قدميه، ويهز حذاءه اللامع:
ـ الأمر ما هو بهذا الشكل، ونحن بعد هذا العمر ما عدنا نحتاج لا إلى ابن ولا إلى صديق، خبرة الحياة علمتنا، وكما قال أبو عدنان، نسأل الله ألا يحيجنا إلى أحد.
أبو سامر يمد عنقه الناحل، يتقدم بجسمه الضئيل إلى أمام، كأنه يريد أن يخرج من الكرسي العريض الواسع، وقد بدا فيه مثل عصفور، يقول:
ـ ياجماعة، اسمحوا لي، هذا كله صحيح، ولكن الحياة ومن حولنا تغيرت، ويجب أن نعترف، نحن نتصل بأولادنا ونسأل، هذا من أجل الأنس والتواصل.

أبو وسيم يرفع بيده الكأس الصغيرة إلى فمه، يأخذ رشفة، وقد جعل المسبحة في ساعده، ثم يقول:
ـ يجب أن نقر، الزمن تغير.
أبو سامر يقترب بجسمه الناحل من المنضدة ليتناول كأس الزهورات، ويتكلم بصوته الذي لا يكاد يسمع:
ـ نحن كبرنا، والعقل ما عاد مثل الأول، صدقوني، أمس اتصلت بابني وسألته، سبعة في سبعة كم تساوي، كان هو يسألني، فصرت أنا أسأله.
قهقهات القوم تعلو، بطن أبو وليد تترجرج، أبو جميل يكاد ينهض من كرسيه، الكرسي تحت أبو وليد يتزعزع من فرط ضحكه، أبو أحمد يغص بالضحك، اللغد تحت ذقنه يترجرج.
يدخل النادل بقامته القصيرة، وظهره المحدودب، ويسأل:
ـ اسمحوا لي أن أطلب منكم جميعاً، أن تسألوا لي أولادكم كلهم أن يساعدوني على توفير عمل لي، عند الطبيب أو عند المحامي أو في أي عمل.
وينظر إليه الجميع، بصمت، ثم تتقاطر عليه الأسئلة:
ـ ولماذا؟ هل استقلت؟
ـ هل تخلى عنك أبو حسين صاحب المقهى؟
ـ هل تعبت من هذا العمل وتريد تغييره؟
ـ أظن أنت مللت من التعامل مع هذا الجيل الجديد، وكرهت المقهى بسببهم؟
أبو عدنان يحاول رفع رأسه بصعوبة، ظهره مائل إلى الأمام، كأنه يقدم للزبائن كؤوس الشاي، يتكلم:
ـ هناك شيء جديد، لم أسمع به إلا قبل مجيئكم بساعة، لا أعرف كيف تم ترتيبه، أو الاتفاق عليه، يبدو جرى كل شيء بصمت وهدوء، والله، الآن وقبل ساعة علمت، وقع عليَّ الخبر مثل الصاعقة.

يتكلم أبو جميل، وقد ثنى قدميه، كأنه يهم بالنهوض:
ـ تكلم، انطق.
يتكلم كأنه كسر مئة فنجان:
ـ هذا كله بسبب الأموال، بسبب التجارة، بسبب السيارات، بسبب المعسِّل، الله يلعن الساعة التي عرفنا فيها المعسل.
أبو أحمد ينهض من كرسيه، يهز رأسه الأصلع، يصيح به:
ـ تكلّمْ يارجل، نشفتَ ريقنا، والله نحن نحبك، أنت واحد منا، أنت صديق العمر، ما علاقتك أنت بالسيارات والتجارة والأموال، وما علاقة السيارة بالمعسل؟ تكلم، ذبحتنا.
النادل أبو عدنان يحدِّق في الأرض، كأنه فقد بخشيشاً سقط منه، يتكلم بصوت خفيض:
ـ هذا آخر لقاء لنا جميعاً في هذا المقهى، غداً صباحاً سيسلم المقهى بكراسيه هذه القديمة التي طالما جلستم عليها، وبالمناضد، وبالبركة، والشجرة، إلى المشتري الجديد، سيهدمه كله، سيفك البركة، ويقتلع الشجرة، ويبيع الكراسي والمناضد،سيهدم كل شيء، سيقلب المقهى رأساً على عقب، أنتم تعرفون، المقهى يقع في قلب المدينة، في موقع مهم، ستُبنى في موضعه عمارة من عشرة أدوار، كلها مواقف للسيارات.

أجرة الشقة

استيقظَ على ألم يقطِّع أمعاءه، ثقل شديد جداً في أسفل أسفل البطن، وامتلاء، إلى حد الانفجار، فتح عينيه، تثاءب، مال إلى جنبه الأيمن، دلّى رجليه إلى الأرض، وجلس على حافة السرير، وضع قدميه في المشَّاية، ضغط على ركبتيه، لم يستطع النهوض، ضغط ثانية، ونهض. استند إلى الجدار، وأخذ يجر قدميه جراً. أمسك مقبض الباب، تشبث به، التقط أنفاسه بصعوبة، دفع الباب ودخل، تثاءب، رفع غطاء المرحاض، أنزل سرواله وقعد، لم يتدفق البول، أحس بحرقة شديدة، ضغط، ضغط أكثر، بدأ البول القاني يرشح، باعد ما بين قدميه ونظر في الحوض، الماء الساكن في الحوض اصطبغ بالأحمر، تثاءب، شد جفنيه، راوده النعاس، تمنى لو ينام، ولكن تقلّصات شديدة في أمعائه أيقظته، مسّد بيده أسفل بطنه، مسح على جلد بطنه بالماء، ازداد التقلص، صاح، آه، حاول شد أمعائه إلى الداخل، ضغط إلى أسفل، ثمة امتلاء قاس، شديد، صلب، كأن قضيباً معدنياً قطره عشرة سنتيمتر يضغط في أسفل أمعائه، يريد الخروج، ولكنه لا يخرج، دمعت عيناه، تأوّه، صاح، ضغط على أمعائه بأصابعه، ضغط حول فتحة الشرج، ضغط على حافات الحلقة، القضيب المعدني يمزق أمعاءه، من أجل ثلاث لقيمات عند العشاء تتمزق الآن أمعاؤك، تتمزق روحك، ساعة هناء، عمر من الشقاء، ما عاد ينفع الدواء، بعد الآن لن أقبل أي دعوة إلى العشاء، إما أن تكون الدعوة إلى الغداء، أولا تكون، بل لتكن الدعوة إلى الفطور، منذ عشرين عاماً كان يجب أن أموت، ما نفع

الثمانين، وأنت وحدك، في الفراش وحدك، في المرحاض وحدك، في الشرفة وحدك، في القصر وحدك، في الدنيا كلها وحدك، حتى الخادمة لا تأتي، تدفع لها كل ما تريد، تأتي يوماً وتغيب عشرة، ستتفجر الأمعاء من غير شك، ستخرج الروح هنا في المرحاض، وتسقط في الحوض، وتموت، يبتلعك هذا الماء، سكاكين حادة تقطع في الأمعاء من الداخل بالطول والعرض، ألم حاد يضرب في الصدر، تجحظ العينان، تغيم الدنيا، تصبح سوداء، لا، لا، هيا يجب أن تخرج أيها القذر، اخرج، لن أموت، ويضغط، ويضغط، يضرب على بطنه بقبضة يده، يضغط على أسفل أسفل بطنه، يضغط بأصابعه على الحلقة حول فتحة الشرج، ما هذا؟؟ أهو مدخنة معمل أم أسطوانة المجاري، لن أتناول بعد الآن لا عشاء ولا غداء، سأكتفي بالإفطار، حتى ولا إفطار. وأخيراً، ينقذف العمود المعدني الحجري، كأنه قذيفة مدفع، وتنفجر أسطوانة المجاري، أف لهذه الرائحة ولهذه الحياة، أهذه هي الحياة، أم هذا هو الموت، لا، لم أمت، هذه هي إذن الحياة.

ويضغط على مفتاح الخزان، ويتدفق الماء، ولكن لا يجري، فقد سد المجرى، يضغط ثانية على مفتاح الخزان، ويتدفق الماء فوق الماء، يتجمع، ثم يتدفق في عمق الحوض، يندفع إلى أسفل محدثاً دوياً، لاشك في أن الجيران قد سمعوه.

وينهض، يمسح الدمع المتجمع في عينيه، يحدق في المرآة التي تملأ نصف الجدار أمامه، أهذا هو أنت؟ لم تمت بعد؟! تباً لك، لا، لن تموت.

ويرن جرس الهاتف:

ـ أهلاً ابنتي.

ـ سامحني بابا، لم أستطع اليوم المرور بك، سيارة سامح متعطلة، أخذت سيارة أجرة، أوصلت حفيدك إلى الروضة،

وصلت إلى عملي متأخرة، الزحام شديد، شديد جداً، أكثر من منفذ مغلق بسبب الزحام، هل تريد شيئاً، سأطلب من خادمتي المجيء إليك، سأتصل بك مرة ثانية، جاء مراجع مستعجل، هذا من طرف المدير، وأنا لم أنجز معاملته.

الزحام شديد، نعم شديد، شديد جداً، ولكن ليس مثل الزحام الذي كان في أمعائي، المهم انفرج الزحام في النهاية.

ـ انتظري، كلمة واحدة، أنا مستعجل أكثر، لا أريد خادمتك، لا أريد أي أحد، أنا ملك زماني، قولي لي فقط، هل اليوم أول الشهر أو بكرة، المستأجر ابن الكلب ما دفع حتى اليوم لي أجرة الشقة.

المصعد متعطل، ليس ثمة مشكلة، فنحن لن نصعد، وإنما سنهبط، ولن نهبط كثيراً، إنما سنهبط دورين فقط، عشرين درجة لا أكثر.

ـ كيف يسكن هنا؟

ـ هذا ليس مسكنه، هو أحد الأماكن الذي يقابل فيه بعض الناس.

شعرت بامتعاض شديد، قلت لصاحبي:

ـ أرجو ألا يكون أسوأ الأمكنة.

أجابني:

ـ هو الأفضل.

ـ هل أنت متأكد؟.

أجابني مفاخراً:

ـ أنا أعز أصحابه.

أصحابه أم أتباعه؟ سألته:

ـ وهل يخشى غارة جوية حتى يسكن هنا؟.

ـ أنت لم تقدِّر، ولا تعرف طبيعة الأرض، هي منحدرة، وهذا المنزل حديقة، تطل على المدينة كلها.

تطل على المدينة كلها، لكن، لا على الدنيا كلها،هي عشرون درجة حقيقة، لا أكثر، ولكنني أحس أني أهبط إلى الجحيم.

الباب ينفتح عن، يا إلهي؟ هل هي ابنته؟ أعرف أن ليس عنده ابنة ولا ابن؟ هل هي زوجته؟ وقد طلقها منذ زمن، هل هي عشيقة؟ لا يعقل، وهو الذي ما عاد يملك أي شيء، أجمل من بريجيت باردو، وأحلى من كلوديا كاردينالي، وأكثر إثارة من؟! لا أعرف؟ ما عدت أتذكر أيهن أكثر إثارة.

ندخل إلى بهو واسع، حذائي يغوص في سجاد حريري ناعم، الجدران الممتلئة باللوحات والأركان الغاصة بالتحف والهدايا تحتويني، سماء من الثريات تظللني، كأنني في محل لبيع التحف والهدايا والآثار واللوحات والمرايا، لا موضع في الجدران لمسمار، ولا ركن يتسع لآنية صغيرة، امتلاء تام حتى الاختناق.

أشارت الخادم الأميرة الملكة إلى مقعد، غصت فيه، كأنني أغوص في قدر من الدهن الذائب، صمت هادئ، لاذرة غبار، لا نأمة، لا حركة.

القهوة تقول لك أنت لم تذق قط مثلها من قبل ولن تذوق مثلها أبداً من بعد، أنت هنا لا شيء.

*

أخذت أصعد الدرج، الآن أبعث حياً، أخرج من قبر، أحسست أنني حقيقة أصعد، أول مرة أفهم فيها معنى تنفس الصعداء، النور يملأ عيوني عند مدخل العمارة، صخب السيارات وضجيجها وسحج عجلاتها في الشارع وحركة المارة وأصوات البائعين أعادتني إلى الحياة.

اشتقت إلى غبار الرصيف، إلى أكياس القمامة، إلى قطة عجفاء تتمسح بي عند الرصيف.

مددت يدي إلى صديقي الذي اصطحبني إلى هذه الزيارة، شكرته، ثمة أسئلة كثيرة جالت في خاطري، ولكن صمتت، وقبل أن أمضي همس لي:

- هل تعرف؟ هو رجل كريم، قلبه غير متعلق بالدنيا، أوصى بكل ما يملك لدور الأيتام والعجزة وللمستشفيات، بعد موته، لا أحد يزوره، انتهت أيام العز، كان مكتبه يختنق بالمراجعين.

صمت ثم أضاف:

ـ قبولك زيارته لغير غرض ولا مصلحة، وهو لا سلطة له اليوم ولا نفوذ، أعادت له الحياة.

*

لا فضل له في ذلك، إن أوصى بأمواله أو لم يوصِ، أمواله ستُرَدّ إلى أصحابها، شاء أم أبى، وكان الأحرى به أن يردها وهو حي، لا هو ميت، ويكتفي بالعيش في شقة صغيرة، أو في فندق، وبعد ذلك، ماهذا الكذب؟! منذ قليل قلت لي هذا ليس مسكنه، إنما هو أحد الأمكنة لاستقبال أعز أصدقائه، يعني أنه ما يزال هناك من يزوره؟ إما أن يكون هناك زوار أو لا يكون.

*

قلت له معلقاً، وأنا أشد على يده مودعاً:

ـ اسمعني، أنا، كل زياراتي السابقة في أيام عزه كانت لمجرد الوفاء لذكرى الصحبة والجوار، كنا أصدقاء طفولة، ولعبنا حافيين في الحارة والزقاق معاً، أنا ما طلبت منه يوماً أي شيء.

ومضيت على الرصيف، بين البشر، أحس بوجودي.

هل يمكن حقاً لمثل هذه الزيارة أن تعيد إليه الحياة؟

ليتني لم أزره.

الباب موارب، ثمة ضوء خافت في الداخل، همّ بدفع الباب والدخول، لكنه قرع الجرس، قرعه مرة ثانية، فُتِحَ الباب عن وجهها الصغير الناعم، وشفتيها المكتنزتين المتفجرتين باللون الأحمر الفاقع، وقميصها الأصفر المفتوح عند الصدر، شك في الأمر، حسب أنه أخطأ في الباب، نظر إلى اللوحة المعلقة على الجدار، "الدكتور وائل الحسن"، سمعها تهمس:

ـ ما في أي مشكلة، ما دمت جئت، تفضل.

كأنها ليست هي، لكنها هي، رد وهو يضع يده على خده، في موضع الضرس المخلوع:

ـ أنا آسف، سأرجع.

أكدت مبتسمة وهي ترجع إلى الوراء مفسحة له الطريق:

ـ تفضل، تفضل.

الممر معتم قليلاً، كأنه يدخل في نفق، ثمة ضوء خافت في داخل غرفة الطبيب يشف عنه الزجاج المغبش، تردّد، ثم دخل، جذبه عطر فاغم، حادّ، نفّاذ، كأنه القرنفل، أو القرفة، ممزوجاً بعبق القهوة، أحس بدفء أو رطوبة، تسربت إليه همسات من موسيقا حالمة وصوت ناعم نديان، هو صوت أليسا، ما عاد يميز، غامت الأشياء، وتعطلت الحواس.

*

حرص على تنظيف أسنانه بالفرشاة والمعجون، من غير أن يمسّ بالفرشاة موضع الضرس المخلوع، مرّتين نظّف أسنانه، ثم ترك الرغوة في فمه، دقيقتين، لتبقى في فمه

رائحة النعناع، ثم غسل فمه بالماء، أحس بالانتعاش، سيفتح فمه أمام الطبيب، يجب أن يكون فمه نظيفاً وأسنانه نظيفة، أثنى الطبيب على أسنانه، قال له:"أسنانك بالنسبة إلى عمرك قوية، ونظيفة"، أجابه:"ولكنها صفراء، أستعمل الفرشاة كل يوم مرتين وأحياناً ثلاث مرات"، وردّ الطبيب:"للأسنان درجات من اللون، وليست كلها بيضاء"، وأضافت الممرضة: "أسنانك جميلة"، واستدركت:"ليست صفراء، لونها طبيعي"، رشت على يديه عطراً خفيفاً قبل خروجه، وهي تقول:" هذا عطر ممدد، لتزول رائحة المخدّر"، نفحها خمساً وعشرين ليرة، حرص أيضاً على ارتداء قميص نظيف، فضل أن يمضي إلى العيادة بسيارة أجرة، ليصل قبل الخامسة مساء، موعد افتتاح العيادة، ليكون أول مراجع، لا يحب الانتظار، ولا يحب الأطباء ولا المستشفيات، هذه أول مرة يخلع فيها ضرساً، بلغ الستين ولم يخلع أي ضرس في حياته، ولكن مع إحالته على التقاعد، يقلع أول ضرس من أضراسه، لم يمض سوى شهر واحد على إحالته على التقاعد، لا شك أنه سيقلع غداً ضرساً آخر وستتساقط الأسنان والأضراس، لم يشعر بألم، وخزة صغيرة ناعمة من إبرة المخدر، ولا ألم فيما بعد، أغمض عينيه، الضوء الأبيض فوق وجهه يملأ الدنيا، هو أفق مفتوح يحلق فيه، بل فضاء واسع رحب يرتاح إليه، كأنه في الجنة، قالت له:"اسند رأسك إلى وراء، إذا سمحت"، رائحة المخدر بدت جميلة، الطبيب يرفع ذقنه إلى أعلى بيده، يده ناعمة، لا، بل هي يد الممرضة، شعر بمتعة، أحس بنبض في خلاياه، شعر بشيء يدب في عروقه، كأنه يواجه الموت بدفقة من حياة، لطالما سمع قصصاً وحكايات عن أناس خلعوا أضراسهم، وتسمم دمهم وماتوا، أنامل الممرضة كانت دافئة، ويخرج من العيادة مزهواً، ما كان يتوقع ذلك، وهو يناولها

الأعطيـة وضـعت يـدها علـى يـده فـي محاولـة لطيفـة منهـا للاعتـذار، وهـي تقـول:"لا، أشـكرك، أنـا لـم أفعل أي شـيء"، أناملها لمست يده، وضع المبلغ في يدها، أطبق بيده أناملها على المبلغ، وهو يقول:"هي هديـة، لطفك ساعدني على خلع الضرس، لم أشعر بألم، الفضل لك"، ومضى إلى البيت، رفع القطن عن الضرس، وتناول كأس شاي دافئة.

*

ترى هل سيشعر الآن بألم والطبيب يقص الخيطان في موضع الجـرح؟ سـمعه يقـول للمرضـة: "الخـيط"، خـاط فيمـا يبـدو الجرح، لم يشعر بألم، قال له:" تحت الضرس احتقان وخرّاج، لا بد من الشق لتنظيفه"، أجابه وهو مغمض العينين:"افعل ماتشاء"، أحس ببرودة ناعمة، لاشك أن المشرط قد أحدث الجرح، ركز تفكيره في العالم الأبيض الذي هو غارق فيه، لم يشعر بـألم، والآن، بعد أربعة أيام يرجع ليفك الخيطان"، لا شك ستساعده الممرضة، ولن يدفع أجرة إزالة الخيطان، ولكن إذا كانت الممرضة موجودة فلا بد أن يمنحها خمسين ليرة، الأحمر الفاقع في شفتيها المكتنزتين أنساه الألم، ما كان يقتنع بضرورة مثل هذا الأحمر في الشفتين، ولكن هذه أول مرة بدا لـه ضرورياً، فهو يُنسِي الألم، حتى الأبيض في صدرية الطبيب والممرضة بدا جميلاً ومريحاً، لكن النور الأبيض الذي يغمره وهو مغمض العينين، له حضور آخر، كأنه في الجنة، هل الجنة هكذا هادئة ناعمة مريحة؟.

*

وهو ماض على الرصيف متجهاً نحو العيادة، يسمع نداء من ورائه، يلتفت، وإذا زميله أبو عمر يخرج من مكتب عقارات:

ـ ماذا تفعل هنا، يا أبو صالح؟

ـ أنا ذاهب إلى طبيب الأسنان.

ـ بدأت أسنانك تسقط، أمس تقاعدت.
ـ سن الستين غير سن الخمسين، بدأ العطب، وأنت ماذا تفعل هنا؟.
ـ أنت تعرف، أنا استقلت من الوظيفة قبل عشر سنوات، أنا أنتقل من مكتب عقارات إلى مكتب، أشتري قطعة أرض، أبيع أخرى، الحمد لله، اشتريت لكل ولد شقة، ولكل بنت شقة، وعندي ثلاثة مشاريع بناء في الحي الغربي، إذا أردت شراء دار لأحد أولادك.
ويناوله بطاقة باسمه، وهو يقول:
ـ اتصل بي، وأنا في الخدمة، إذا ما كان بإمكانك شراء شقة في مشروع عندي في الحي الغربي، الأسعار عندي غالية، أنا مستعد لمساعدتك، هنا، في الحي الشرقي، الأسعار هنا أرخص، أصحاب المكاتب العقارية كلهم أصحابي.
يودعه ويمضي.

*

أبو عمر زميل الدراسة، تخرج بعدي بثلاث سنوات، أمسكه العميد بنفسه وهو يغش، عوقب بالحرمان سنتين، معدّل تخرجه مقبول، أمضى في الجامعة ثماني سنوات، فور تخرُّجه توظف، بعد سنتين عُيِّنَ رئيسَ قسم حسابات، علاقاته بالناس واسعة، يعرف هذا وذاك، ويخدم هذا وذاك، ولا يتردد في طلب خدمة من الجميع، وأنت معارفك أكثر، تخدم الناس جميعاً، ولكن لا تطلب من أحد أي شيء، لذلك لا علاقات لك، بقيت ثلاثين سنة مجرد جابٍ في غرفة صغيرة، وراء كوة زجاجية تتلقى أنفاسَ المراجعين، تقدّمت بطلب انتقال إلى مدقِّق عدة مرات، يقول لك المدير:"أنت شريف، يجب أن تبقى في مكانك، نحن بحاجة إليك، عملك أمانة"، طوال ثلاثين سنة لم آخذ إجازة مرضية، لم أتأخر عن عملي يوماً، ولم أغب،

عندي دائماً كيس نقود معدنية من فئات صغيرة، أرد للمراجع الليرة والليرتين، وغيري لا يرد العشرة والعشرين، لست نادماً، أنا راض، هذه هي قناعتي.

*

يدخل المبنى، الممر طويل، سيدة تغسل مدخل البناء، الخرطوم بيدها والماء يتدفق منه، وهي مائلة بجسمها على مكنسة تدفع بها الماء والعوالق والأوساخ، يخشى ألا تكون قد أحسّت بخطواته، فهي منهمكة في العمل، يسعل، يتنحنح، ترفع رأسها، في الأربعين من عمرها، عيناها سوداوان، ممتلئة الصدر، تنتحي جانباً، تبتعد عنه قليلاً، توجه الخرطوم إلى جانب، تجعل الماء يتدفق على الجدار.

- شكراً لك.

يحس برغبة في التبوّل، مثلما كان يحس برغبة في التبول قبل الدخول إلى الامتحان، يمر بها، يأخذ في صعود الدرجات العشر إلى الدور الأول، باب العيادة موارب، ليس مفتوحاً على آخره، ينظر في ساعة يده، هي الخامسة.

*

في الممر الضيق المعتم، يقف، يتردد، يحار في أمره، تقف قبالته، مسندة ظهرها إلى الجدار، دافعة بصدرها إلى الأمام، عبق القهوة يسحره، وهي تقول له:

- الطبيب لا يأتي إلى العيادة اليوم، يوم الخميس مساء لا ينزل إلى العيادة، أنا آتي لتنظيف العيادة وتعقيم الأدوات.

يهم بالعودة إلى الباب، وهو يقول:

- سأرجع، اعذريني.

تضع يدها على الجدار أمامه، كأنها تسد عليه طريق العودة، تقول له:

- لا، لاترجع، ابق أنا سأعتني بك.

يقول لها وهو يتردد:
ـ ولكن قرأت على اللوحة عند الباب: الدوام الشتوي من الخامسة حتى التاسعة.
تبتسم، تعلق:
ـ ولكن في السطر الأخير مكتوب:"ما عدا يوم الخميس"، واليوم هو الخميس.
يهم بالمضي نحو الباب، يدها ما تزال تسد عليه المنفذ، تكاد تلتصق به، وهو يقول:
ـ معذرة لم أقرأ، لم أنتبه إلى أن اليوم هو الخميس، يمكن أن آتي السبت.
ترفع يدها عن الجدار، تضعها في خصرها، وهي تقول:
ـ قلت لك أنا سوف أعتني بك، إلا إذا كنت لا تثق بي.
يرد وقد نضح جسمه عرقاً وسخونة، وأحس بشيء ما في داخله:
ـ عفواً، أنا أثق بك.
تبتسم، وتقول:
ـ إذن تفضل، اقعد، هنا في الممر، اعذرني دقيقة واحدة، دلة القهوة على النار.
تتركه وتمضي إلى المطبخ.
الممر ضيق، معتم، يشم رائحة شامبو عطر، إلى اليمين باب مفتوح على مطبخ صغير وحمام، الممر يستمر طولاً، يفضي إلى غرفة انتظار صغيرة، على الطرف الأيمن أريكة جلدية طويلة، يقعد عليها، على الطرف الأيسر كرسيان جلديان، إلى جوار الباب الداخلي المفضي إلى غرفة الطبيب منضدة صغيرة هي للممرضة، رآها تقعد وراءها، قبل أربعة أيام، كأنه يرى المكان أول مرة، في الزيارة السابقة كان ضرسه يؤلمه، لم ير من المكان شيئاً، الآن يراه، على منضدتها كتب جامعية، ينظر

في أحد الكتب:"القانون الدولي"، " قانون التحكيم الدولي لطلاب السنة الرابعة".

*

أنهض، أتجه نحو الممر، أقف وراء الباب المغلق أمام المرآة، مرآة طويلة، بطول مترين، تصل إلى الأرض، أرى حذائي، والغبار يعلوه، مسحته قبل أن أخرج، ولكن بعض الغبار الأبيض علاه، الشعر الأبيض يغطي رأسي، إسماعيل نصح لي أكثر من مرة بصبغ شعري، "انظر أكثر السيدات، ولاسيما الصبايا يتجهن فوراً إلى نافذتي، لدفع الضريبة، أنت لا يتجه إلى كوتك إلا الشيوخ العجائز".

قصير، أسمر، دميم، ذقنك عريضة، لحيتك غير حليقة، لماذا لم تحلق لحيتك، الشعر أبيض، الجبين ضيق، ورثته عن أمك، كما ورثت عنها القصر، كم تكره هذه الصورة.

*

من داخل المطبخ يأتيه صوتها:

ـ تعال ساعدني، لا تنظر في المرآة، حتى لا تصاب بالجنون.

ـ هذا كلام عجايز.

يقترب، يقف بالباب:

ـ وأنا عجوز، تعال ادخل.

ـ المطبخ ضيق.

ـ ادخل، نعم، المطبخ ضيق، ولكن يتسع لاثنين، لاتخف لن آكلك.

عبق القهوة يشده، يدخل:

ـ لا أخاف، أنا مثل والدك.

ـ لا أنت مثل جدي، سأقعد في حضنك، وأعض ذقنك.

تضحك، تقهقه، دلة القهوة تنقلب، تنسكب القهوة على الموقد:

ـ أوه، حظي سيئ، سأرمي هذه القهوة في المغسلة، سأصنع غيرها.
ترميها في المغسلة إلى جوارها، تملأ الدلة ثانية، تضعها على النار:
ـ أنا هكذا دائماً مرحة، وخاصة في يوم الخميس بعد الظهر، أرتدي أجمل ثيابي، وأضع الأحمر والأصفر والعطور.
ـ عندما رأيتك حسبت أنك على موعد.
ـ نعم أنا على موعد معك، مع جدي، مع الحب والمرح، أنا دائماً هكذا، أرقص وأغني، بعد قليل سوف أرقص لك، وسوف ترقص معي.
وتضيف البنّ إلى الدلة:
ـ ولكن لا تصدق، أنا أمزح.
ـ أنت طالبة حقوق؟
ـ نعم، في السنة الرابعة.
ـ أنا تخرجت في كلية الاقتصاد، ثم درست الحقوق، نلت إجازة ثانية في الحقوق.
ـ وتعمل في المحاماة؟
ـ لا، عملت في مديرية المالية، جابي أموال، أنا الآن متقاعد، تقاعدت قبل شهر فقط.
تحمل صينية فيها ثلاثة فناجين ودلة قهوة.
ـ هل أساعدك؟
ـ لا، أنت ضيفي تفضل.

*

وتدعوه إلى الجلوس على الأريكة الطويلة، تقعد قبالته في الكرسي الجلدي.
ـ لمن الفنجان الثالث؟

ـ أم أحمد، رأيتها وهي تغسل مدخل البناء، كل يوم خميس تغسل درج العمارة ومدخل البناء، وتساعدني في مسح أرض العيادة، وأنا أقوم بتعقيم الأدوات وتنظيفها، هي أمي الثانية، هي أحنّ عليّ من أمي، هذا اليوم هو يوم تسليتي الوحيدة، وأم أحمد تسليتي الوحيدة في الدنيا، مثلما قلت لك، في مثل هذا الوقت أشرب معها القهوة، بعد أن تنتهي من غسل الدرج ومدخل البناء، وتكون مسحت أرض العيادة، تستحم، ثم نشرب القهوة.

ـ عملك متعب، ودوامك طويل.

ـ هذه العيادة بيتي، أنا أدوام في العيادة من السابعة صباحاً، الطبيب يأتي في التاسعة والنصف، أرتب العيادة، أهيِّئها، ثم أقعد للدراسة والتحضير، حتى في أثناء العمل أدرس وأحضّر، ثم يذهب الطبيب إلى الغداء في الساعة الثانية، أبقى هنا، أتناول غدائي، ويعود في الخامسة، وينصرف في التاسعة، أنا لا أنصرف حتى الحادية عشرة، بيتي قريب، على بعد بضع خطوات، عندي خمسة إخوة، شقتنا صغيرة، أبي متقاعد، لا عمل له، أنا أساعده، أنا أكبر إخوتي، أمي مريضة، أحياناً أنام في العيادة، الجو هنا يساعدني على الدراسة، هي أفضل من بيتي، أنا في البيت لا غرفة لي، ولا موضع للنوم، شقتنا من ثلاث غرف فقط، حتى في يوم غد الجمعة، أنا طول النهار في العيادة، الجيران وأهل الحي كلهم يعرفون ذلك، أنا أعمل ممرّضة بكل معنى الكلمة، أعلق السيروم، وأعطي الحقن في العرق وفي العضل، هنا في داخل العيادة، وفي البيوت.

ـ والطبيب؟ هل يعرف بذلك؟

ـ يرتاح إلى عملي، يتسامح معي، يقدِّر وضعي، يعرف أبي وإخوتي، هو صديق العائلة، أنا عملت هنا بعد نيلي شهادة الدراسة الإعدادية، انقطعت عن الدراسة أربع سنين، ثم نلت

الشهادة الثانوية، أنا درست هنا الشهادة الثانوية، دراستي حرّة، ليست نظامية، أنا أعمل هنا منذ سبع سنين، كان حلمي وأنا في المرحلة الإعدادية دراسة الطب، أن أصبح طبيبة، أمي قعيدة في الفراش، أبي كان ينفق عليها كثيراً، كنت أحلم بأن أكون طبيبة لأعالج أمي، على كل حال أنا الآن نصف طبيبة، صدّقني تعلمت من الدكتور "وائل" كل شيء، أستطيع أن أقوم بكل ما يقوم به، فكرت في السفر إلى الهند والحصول على شهادة في الطب لأمارس المهنة، على كل حال بقي لي سنة، وغداً سوف أسجل عند أحد المحامين للتدرب، سأعمل محامية، العمل في العيادة ساعدني على التعرف على كثيرين، العيادة في حي شعبي فقير، ولكنْ كثير من الكبار وأصحاب النفوذ يأتون إلى هنا، وائل له علاقات واسعة وكبيرة، لماذا لا تعمل في المحاماة بعد التقاعد؟.

ـ لهذا حديث طويل.

*

لماذا لا تعمل في المحاماة؟ الكل يود العمل في المحاماة، الكل يريد أن يدرس الطب، توقعت بعد نيلي الإجازة في الحقوق أن أعين مديراً لدائرة في المالية، أو أنقل على الأقل إلى الدائرة القانونية، ما فكرت في العمل في المحاماة، والآن بعد الإحالة على التقاعد وقد بلغت الستين لا يمكن أن أعمل في المحاماة، القوانين تنص على الحقوقي أن يتدرب عامين عند أحد المحامين قبل أن يباشر العمل في المحاماة، وأن يباشر العمل في المحاماة قبل الخمسين، على كل حال، ولو كان يحقّ لي لما عملت، سأعمل في الدهان، ما يزال بي قوة، هي مهنتي عملت بها وأنا طالب في الجامعة، وعملت بها سنتين بعد التخرج إلى أن تمّ تعييني في المالية، لا أستطيع أن أطلي وجه

المجرم بوجه البريء، ولكن أستطيع أن أطلي الجدار بعشر طبقات من الألوان.

*

تنهض، وهي تقول:

- هل أبدّل الأغنية؟ ماذا تفضّل؟.

- على ذوقك.

- أنا أكره المجاملة، قل لي ماذا تحب سماعه؟

- على ذوقك.

- ذوقي أنا أغنية راقصة أو فيلم سيكس، هل تقبل بذوقي؟

- فيروز.

- لأ، فيروز انتهت، سنبقى مع أليسا.

*

قصيرة، ناعمة، صغيرة، تبدو أكبر من عمرها، رشيقة، سريعة الحركة، سمراء، شعرها أسود ناعم، ينسدل على ظهرها، لا أعرف لماذا ترتدي بلوزة صفراء، فوق بنطلون أخضر، ضيّق، مشدود على خصرها بحزام عريض.

ولكن ماذا تريد مني؟ هل هي مجنونة؟ لا أكاد أصدق أنها تمزح، القهوة حقيقة متميِّزة، ترى هل وضعت فيها مادة ما؟ مخدِّرات أو مثيرات جنسية أو منوِّمات؟ ما أجمل أن أنام هنا، أو أن يكون في القهوة مثيرات، فأعتدي عليها، لا، ليس اعتداء، تبدو هي الراغبة، بل يبدو هي التي سوف تعتدي عليّ؟ لعلها تسخر مني، لا بد من التوازن، قليل من المرونة، قليل من التماسك، وفي اللحظة الحاسمة لا بد من الحسم.

*

لوبصيت قدامك تعرف..لوبصيت قدامك تعرف

مين بتحبك مين؟!

مين الي شايفها في أحلامك؟!

ليه ما انتش عارفني؟ ليه مانتاش شايفني؟
لوفكرت فيا شويا هتحس بهوايا...
بيبان من سلامي ....بيبان من كلامي
بشتألك وكل مافيا بشتألك معايا..
الأيام ياحبيبي بتجري ولسا أنا مستنيا
خايفة ليخلص جنبك عمري
ومانتش حاسس بيا!!
لوبصيت إدّامك بشتألك ....
وكل ما فيا بشتأ لك معايا

*

ـ هذه أجمل أم فيروز؟
ـ هذه أجمل.
ـ لا تجاملْ.
ـ هي الأجمل لأنني أسمعها معك.
ترشف قهوتها، ثم تصفّق:
ـ أوه، وصلنا إلى بعض، ما هذا الغزل ياجدي؟!، رجعت إلى الشباب.
ترفع فنجانها، وتهتف:
ـ بصحتك، شربت فنجان قهوة معي فرجعت إلى الشباب، ماذا لو شربت قدح ويسكي؟ أعرف، أنت من النوع الذي لا يشرب، اشرب، اشرب.
ـ قهوتك متميزة.
ـ هذا لايكفي، قل مُسْكرة.
أتجرأ فأسألها:
ـ هل في حياتك واحد؟
ـ واحد، لأ، لكن فيه ألف واحد، كل الناس في قلبي، كل أصحاب الأضراس الموجوعة، وأولهم أنت.

ـ هل غدر بك أحد؟
ـ ما خلق الله حتى الآن الذي سيغدر بي، إلا إذا كان هو أنت، لكن واضح، ما هو أنت.
تضع فنجان قهوتها، وبغنج تنهض، تتجه إلى الغرفة الداخلية، وهي تقول:
ـ سأعقّم الأدوات وبعدها أكشف عن موضع الضرس، يمكن أقلع كل أضراسك، وحتى أرجع، فكّر في الغدر بي، معك وقت.
تقف في الباب:
ـ والغدر لا يحتاج إلى تفكير، لو كنتَ ستغدر، كنتَ غدرت ....راحتْ عليك.
وتغيب في غرفة الطبيب الداخلية، تاركة وراءها الباب مفتوحاً.

*

صوت إليسا ما يزال ينداح مثل أنوار الفجر وأشذاء عطر ناعم في آفاق فضية رحبة واسعة متألقة، تحلّق فيها بعض العصافير الصغيرة، الممر معتم، خانق، صورة طفل على الجدار يبكي، تتحدّر دموعه على خديه، كم أحب هذه اللوحة، كم مرة فكرت في شرائها، كلما رأيتها كدتُ أبكي.

*

متخافش منّي أنا.....اللي زيّي يتخاف عليه
أنا اللي زيي ....مرّة في العمر... تلائي
تعالا حبيبي مش حنسى حبك مهما كان
ياحبيبي غير حضنك أنت ماليش غيرك مكان
ياحبيبي....فهِّمْني خايف منّي ليه؟
أنا مش هكمل يوم بعمري الا بيك
وعشان أعيش لازم أموت طول عمري فيك

*

ينهض، يتجه إليها، يقف في الباب، يستند إلى حافته.
ـ سامع كلمات أليسا؟ هذه كلماتي أنا لك أنت، هذا حظي أنا، ضروري أموت فيك.
ـ بصراحة، سألتك، وبنفسي مرة ثانية سؤالك: في حياتك أحد؟ أريد جوابك بجد.
ـ الله يرضى عليك خلينا في المزح، بلا جد، "وإلا لازم أموت طول عمري فيك"، نحن هذا الجيل، ما في حياتنا حب وغرام وعواطف وكلام، نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء، الله يرحم أيام زمان، نحن لقاء ولا كلام، نحن جيل الضياع، أنا من مواليد عام ١٩٨٠، صار عمري أكثر من ثلاثين سنة، أنا عمري كلُّه في هذا القمقم، أب عجوز، وأم مريضة، وخمسة إخوة، ولا زوج ولا خطيب ولا عشيق، ولا مَنْ يغدر ولا مَنْ يخدع، أنتم العجايز حالكم أفضل من حالنا، أنتم عشتم أيام العز في الشباب، أنت لاحظت مرحي معك ومزحي، هذا كلّه عن قهر، هل تظن أنه يمكن أن أمزح مثل هذا المزح مع شاب من جيلي أنا؟.

*

لا أصدق كلامها، لاشك في أنها تريد الإيقاع بي، تريد تحريضي وإثارتي، لاشك في أني تورطت، كيف يمكن أن أخرج.

*

ـ لماذا أنت ساكت؟ لماذا أنت هكذا دائماً، تقف في الباب ولا تدخل، رِجْل في الخارج ورِجْل في الداخل، ادخل يارجل ولا تخف، هيا، استلق أمامي على كرسي العمليات الدقيقة، سوف أجتث عمرك كله وأسنانك من الجذور.
ـ أنا شاب، وأسناني قوية كما قال الدكتور.
ـ وجميلة كما قلت أنا، ولكن لاتصدق، الآن سأفحصها.

تفتح الميكروويف، تستل منه مشرطاً ومقصاً، تتجه نحو كرسي الطبيب، وهي تقول:
ـ هيا حبيبي، إلى المشرحة، أنا هنا الطبيب، كما قلت لك يوم الخميس مساء أنا الدكتورة، قدرك ساقك إليّ، تفضل.
ـ هذا المكروويف من نوع جيد، أمس اشتريت لزوجتي مثله، بمناسبة إحالتي على التقاعد.
ـ حبيبي، هذا أوتوكلاف، جهاز لتسخين الأدوات الجراحية إلى درجة عالية، بعد غسلها، هذا ليس بمكروويف.
ـ ولماذا هذه المشارط كلها؟
ترد وهي تضحك:
ـ كل مشرط له وظيفة، أي مشرط أعجبك؟
يمازحها وهو يرد:
ـ أعجبني هذا المشرط الصغير؟
يمد يده إلى المشرط، يمسك به، يتأمله، تعلق:
ـ انتبه، لا تجرح نفسك.
تضحك، تقهقه، وهي ترد:
ـ هذا لقطع عضو رجل عجوز مثلك.

*

ماهذا المزاح، أي جيل هذا؟ زوجتي طول عمرها ما مزحت معي مثل هذا المزاح، ناشفة، جامدة، لا تأتي بحركة، ولكن أنا وضعتها في قمقم، وقفلت عليها، أرجع من الوظيفة وأنا متعب، وأذهب إلى الوظيفة وأنا قلق مهموم، ما من يوم سمعتْ فيه نكتة منِّي، ولا أنا سمعتُ منها نكتة، ما عدت أعرف، هذه المجنونة أكاد أجن معها.

*

ينظر إلى طرف المشرط اللامع، يتخيله وهو يحز الجلد، ينغرز في اللحم، تذكّر البرودة الحادة، غامت الدنيا في عينيه.

يسمع صوت بلبل يرسل تغريده سحابات سحابات من الشذى والنغم، يسأل:
ـ النافذة هنا تطل على حديقة؟
ـ نعم، أنت تتهرب، من المكروويف وزوجتك المصون والتقاعد إلى البلبل، أنت خائف.
ـ لا، ولكن أحب الكناري، هل سمعت صوته؟ هل يمكن أن تفتحي النافذة؟
ـ لا يمكن، أخشى أن يرانا أحد، وأنا أجري لك العملية، بعد العملية يمكن أن أفتح لك كل شيء، حتى قلبي، هل تحب النوافذ؟
ـ أرجوك افتحي النافذة، أكاد أختنق.
تتجه إلى النافذة، تفتحها، تلتفت، يحار، يرتبك، والمشرط في يده، ماذا سيفعل؟ يلقي به في جيبه.

*

النور يدخل إلى الغرفة، تنفتح النافذة عن أعضان شجرة تتألق أوراقها، تدخل نسمات عذبة، تنداح أطياف من تغريد البلبل.
ـ هل أنت خائف؟
ـ لا.
ـ هل تعرف؟ أنت مثل الطفل الصغير، تطلب منه أمّه أشياء، ويطلب منها هو أشياء ليعجزها ويزعجها، ولا يحقق طلباتها إلا إذا حققت طلباته، صدقني أنا عرفتك وفهمت شخصيتك من أول كلمة، سألكَ الدكتور خوفاً من النزف قبل أن يخلع ضرسك: "هل تعاني من الداء السكري"، قلت له: "لا أعرف، أنا في هذا العمر، ما حللت دمي، ولا أعرف زمرته"، وأنا فوراً قلت في نفسي:"هذا الرجل طيب"، وصدقني أنا اليوم مسرورة بوجودك معي.
ـ شكراً.

ـ لا داعي للشكر، والآن تفضل إلى الكرسي.
ـ أخشى أن أغرز أنا في فخذك إبرة المخدّر، مثل المستر بن.
تضحك، تضحك كثيراً، تقهقه، تضع يدها على بطنها، من الضحك، تعلق:
ـ صدقني، منذ أن دخلت عليّ، وإلى الآن، أسأل نفسي: من يشبه هذا الرجل، سبقتَني، ولكن اطمئنّ، لن تصل يدك إلى إبرة المخدر، لأنني لن أجهزها لك، أنت لا تحتاج إليها.

*

صدرها حنون، دافئ، وهي تشد رأسي إلى صدرها، يداها ناعمتان، وهي تسند ذقني بيدها، وتقول:
ـ افتح فمك.
ـ كان يجب أن أغسل فمي من أثر القهوة.
ـ أنا لن أقبلك، ولن أسمح لك بتقبيلي، ومع ذلك القبلة بالقهوة أطيب.

*

المشرط في جيبه، له ثقل، له وزن وحضور، يحس به، يخشى أن يمزق جلده، أي خطأ هذا؟ من البدء كان يجب ألا أدخل إلى العيادة، والطبيب غير موجود، ولماذا رميت بالمشرط في جيبي، قد ينغرس في فخذي، وإذا اقتربت هي مني فقد ينغرز في فخذها، مستر بن غرز إبرة المخدر في فخذ الطبيب، فخدّره، هل يعقل أن يحدث الأمر نفسه؟ لكن الأمر هنا مختلف، نحن لا نمثّل، هي حقيقة مرحة وتمزح، وهذا المزاح نفسه لا أعرف إلى أين سيقود، المشرط حاد، الجرح به غائر، حده اللامع يغشي عيني، ماذا أفعل، أغمض عيني فأراه، لا بأس، صوت أليسا، ليته ينسيني.

*

متخافش مني أنا اللي زيي يتخاف عليه

أنا الي زيي مرة في العمر تلائي
تعالا حبيبي مش حنسى حبك مهما كان
ياحبيبي غير حضنك أنت ماليش مكان
ياحبيبي....فهمني خايف مني ليه؟
أنا مش هكمل يوم بعمري الا بيك
وعشان أعيش لازم أموت طول عمري فيك

*

يغمض عينيه حتى لا يعرف ماذا ستفعل.
الضوء يتسرب من النافذة معطراً بنغم الكناري، الآن تغيم الأشياء، تتعطّل الحواس، هذا الذعر ليس كالذعر ساعة قلع الضرس، بل أشد، لماذا هذا الوهم القاتل؟ يراها تطبق فمها على فمه، يتذوق طعم القهوة، يشعر بصدرها الناهد وقد لامس صدره، كما تقول أليسا، يجب أن تموتي، المشرط الناحل الصغير ينغرس في عنقها، البلبل يصمت، ينظر إلى المرآة وراء الباب، أم أحمد تفتح الباب وتدخل، يغرس المشرط في صدرها، على الرصيف يركض، يدخل إلى مكتب دلال العقارات، يفتح يديه له، يعانقه، جئت أشتري شقة فخمة، ويغرس المشرط في صدره.

*

ـ انهض، أزلت الخيطان، الجرح التأم تماماً، معافى.
ينزل عن الكرسي، الصدرية البيضاء تلفّ جسمها، تقوده إلى الممر الضيق.
ـ هكذا انتهى الأمر بسهولة؟
ـ طبعاً، وماذا كنت تتوقع؟ هل هي حفلة عرس وزواج، ليلة العرس أصعب منها، أنت متزوج وتعرف؟
يفتح الباب الخارجي، تدخل أم أحمد:
ـ تأخرت يا أم أحمد، القهوة بانتظارك.

ـ مَنْ عندك؟
- زبون.
ـ سأدخل إلى الحمام في الأول، لا بد من حمام دافئ.
تلتفت إليه الممرضة، وهو في الممر يهم بالمغادرة:
ـ ابق معنا، اشرب الفنجان الثاني، أم أحمد لن تتأخر في الحمام، سأعد قهوة جديدة ساخنة.
يتردّد، يحار في أمره، يتلعثم:
ـ شكراً، شكراً، أرجوك، اسمحي لي، أنا مستعجل.
*
يمد يده إلى جيبه يهمّ بمناولتها مبلغاً من المال، تضع يدها على كتفه تقول مصممة:
ـ أشكرك، لا أريد أي شيء، أنا قمت بواجبي فقط.
ـ ولكن
ـ لا أقبل، هذه إهانة لي إذا قبلت.
*
يشعر بارتياح شديد لاعتذارها عن قبول أي مبلغ كان، وإلا رأت يده، الدم لا شك بدأ ينزف من بين أصابعه، وهو لايدرك مدى الجرح، يسرع إلى الخروج من العيادة، ويده ما تزال في جيبه، يلمح صورة الطفل الباكي، دموع كاذبة، أضافوها إلى اللوحة، جعلوه يبكي ليشفقوا عليه، يودّ لو يحز اللوحة بالمشرط، يلمح المرآة الواقفة وراء الباب، شبح فيها، يهم بالخروج منها، يريد مطاردته.
في ممر البناء يُخْرِج يده من جيبه، قليل من الدم ينزف من أصابعه، يده اصطدمت في جيبه الفارغ بالمشرط الحاد الصغير.
فنجان واحد أسكرني، ماذا أفعل بالفنجان الثاني؟ ومع مزاحك أنت وحدك ما عدت أفهم أي شيء، اختلّ عقلي، فكيف إذا

قعدت بينك وبين أم أحمد؟ خليها مع أمها، تسليتها الوحيدة في هذه الدنيا، لتمزح معها، أنا لا أستطيع تحمُّلَ هذا المزاح، ماعدت أميّز بين الجد والمزح، همومي قتلتني، الأولاد كبروا، والمسؤوليات زادت، والراتب نقص، توبة، ما عدت أدخل عيادة طبيب، سأتحمل وجع ألف ضرس، ولن أخلع بعد اليوم أي ضرس.

*

ـ من هذا الرجل، ما حكيت لي عنه، أنا أول ما مرّ بي وأنا أغسل مدخل العمارة ما ارتحت له، نظراته غريبة، وهو يخرج الآن كانت نظراته قلقة، مثل الضائع، يده في جيبه، ولا يعرف كيف سيخرج، أنا خفت منه.

تضحك، تقهقه كثيراً:

ـ لا، لا تخافي، رجل طيب، مثل مستر بن، هو نفسه شبه نفسه بمستر بن، وأنا مزحت معه.

ـ الظاهر أنك مزحت معه زيادة.

ـ هذه هي الحقيقة، هو رجل طيب مسكين، متقاعد، قولي عنه عاجز، لا يستطيع فعل شيء، وأنا زدتها معه في المزح، ولكن صدقيني، هذه هي أنا، ما في قلبي أي شيء، أحب المزح، ولكن ليس مع أي زبون، بحسب الزبون وبحسب مزاجي أنا، وخصوصاً يوم الخميس في المساء.

ـ امزحي كيفما شئت، إلا معي.

ـ ومن غيرك علمني المزح؟ ومن غيرك أقدر على المزاح معه؟، أنت أرملة بلا زوج، وأنا صبية بلا صديق ولا عشيق ولا خطيب، ما في عندي وما في عندك غير الهم والغم، وما لنا غير المزح.

*

على الرصيف، يلتقيه صديقه أبو عمر، وهو يهم بركوب سيارته.
ـ تفضل يا أبو صالح، أوصلك بسيارتي.
يلوح له بيده اليسرى شاكراً، ويسرع، يده اليمنى في جيبه، يحاول تجنب المشرط. لو ركبت معه في سيارته، كنت غرست هذا المشرط في عنقه، لا أعرف لماذا خبأته في جيبي، ماذا أفعل الآن؟ كيف سأعيده إليها؟.
تزكم أنفه روائح غريبة جداً مختلطة، تمزّق الأنف والصدر.
ما هذه الأكوام من القمامة، كأن عمال القمامة هنا لا يعملون، من الغريب أني لم ألاحظ وجود هذه الأكوام من قبل. على زاوية في الجدار بقع صفراء، هي بقايا بول، تزداد رغبته في التبول، كان يجب أن يتبول في العيادة قبل خروجه، ولكنه شعر بالخجل، الرائحة نفاذة قاتلة. يمد يده إلى جيبه، يمسك به، يلقي به على الرصيف بين كومة القمامة وبقايا البول.

في الطائرة إلى جوار الأمير

أصل إلى المطار، وأنا عائد إلى الوطن، قبل موعد إقلاع الطائرة بساعتين، فأفاجأ بتأجيل الرحلة أربع ساعات.
مرت ساعة واحدة على وصولي إلى المطار، وأنا أنتظر، وجدتها طويلة، طويلة جداً، كيف سأنتظر أربع ساعات أخرى، بل خمس ساعات، نسيت أنه تمّ تأجيل الرحلة أربع ساعات، وأنا وصلت إلى المطار قبل ساعتين.
أنا في قاعة الانتظار على المقعد أنتظر، مسنداً ظهري إلى وراء، مسترخياً بقدر ما أستطيع، ممدِّداً قدميّ فوق حقيبتي، خشية أن يسرقها أحد، أراجع مندوب الشركة فيقول: "قد يكون التأخر ست ساعات، ولعلنا نقوم برحلة استثنائية، سننادي المسافرين، أنا شخصياً سأمر بكم".
قاعة الانتظار مزدحمة، وإلى جواري راكب عجوز، بين لحظة وأخرى يتثاءب، ثم يسألني عن الساعة، وهو يقول:"أخشى النوم"، وأنا بين يقظة والنوم، أتأمل الطائرات وهي تحلق، طائرات تقلع طائرات تهبط، أتأملها، وأنا ليلة أمس لم أنم، سهرنا في الفندق مع الأصدقاء إلى الفجر، هي آخر ليلة، وأحاديث الأصدقاء ذات شجون، أنتظر وأنتظر، وطائرات تهبط وطائرات تقلع، كم هي ممتعة، أليس بينها طائرة تقلع إلى الوطن؟ ومن أرض المطار الممتدة أمامي يدخل مندوب الشركة مهرولاً كأنه يخترق الزجاج، يلوح لي بيده حتى قبل أن يدخل: "هيا هيا، بسرعة حجزنا لك على رحلة خاصة، طائرة أميرية ستقلك إلى قرطبة، تمكث في المطار نصف ساعة، ثم تقلع إلى دمشق مباشرة، هيا، هي على وشك

الإقلاع، نحن نقدّر الأدباء ونحترمهم، الأمير نفسه رحب عندما عرف أنك أديب".
في مقصورة الدرجة الأولى رجل يدعوني، وبيده يشير إليّ للجلوس إلى جواره، الخواتم المذهبة تملأ أصابعه، ليس من أحد في مقصورة الدرجة الأولى سواه، وتقلع الطائرة، يلتفت إليّ ليهمس، وأشذاء العطور تضوع منه:"أنا أحب الشعر والشعراء، وأكرمهم"، أدهش، الطائرة فخمة جداً، ومن باب المقصورة قبل قعودي إلى جواره ألمح بضعة ركاب لا يزيدون عن عشرة، ومقاعدها الخمسمئة خالية، تأخذني الدهشة، يقول: "الآن وصلنا من بلاد الشام، تزودت الطائرة هنا بالوقود فقط، وبعد نصف ساعة ستهبط في قرطبة، نفرغ الحمولة في ساعة، ونعود فوراً إلى الشام، ثم نحمّل الطائرة مرة ثانية، ونعود إلى قرطبة، هذه هي الرحلة الأخيرة لهذا الأسبوع"، ويرنّ الجوال، جوال كبير راقد أمامه على منصّة صغيرة، يظهر في شاشته شاب، يكلمه من غير أن يرفع الجوال:"ماذا عندك؟"، "أخوك في إشبيلية حرك جيشه نحو قرطبة، هل أخرج له بلوائي الخاص؟"، "لأ، لواؤك لحماية القصر، اتصل بملك قشتالة، أرسل إليه الأموال، واطلب منه التصدي لأخي، هذا الملك الإسباني، ملك قشتالة، أفضل من أخي ابن أمي وأبي"، يدخل المضيف يحمل صينية مفضضة فيها طبقان من ذهب فيهما فاكهة، يقول له الرجل:"ادع مساعد القبطان، أعرفه يحب الشعر، معنا في هذه الرحلة شاعر، سيمدحني الآن مرتجلاً قصيدة، مللت من عمال البناء أحملهم معي، ولا يعرفون غير الأكل والنوم"، ويلتفت إلي:"ستنزل معي لترى الحمولة، أعمدة وتيجان مرمرية ومقرنصات مزخرفة من إبداع المعماريين عندكم، حملت معي البنائين، لأستكمل بناء قصري، سأدعوك الشهر القادم لتحضر

حفل افتتاحه، أكبر قصور الأندلس كلها"، ألتفت لكي أقول له:"أنا كاتب، ولست بشاعر"، أشعر بالحرج، أحس بالضيق بالاختناق، يدخل مندوب الشركة رافعاً يده بجواز سفر، يقول لي: "هذا جواز سفرك، كيف نسيته في المطار"، وتهتز الطائرة، كأنها اصطدمت بجسر، أهتز وأنا في مقعدي، في قاعة الانتظار، أكاد أسقط، يلتفت إليَّ جاري العجوز ليقول:"هل أخذتك غفوة؟".

أروي له الحلم، فيضحك، ثم يقول:"لا تستغرب ذلك، مرة أُلْغِيَتْ رحلةٌ من أجل نقل فريق رياضي مع المشجِّعين، لا تنس نحن في القرن الحادي والعشرين".

البحث عن سيرة الشاعر

"أرجو ألا يقام لي حفل تأبين، وألا يكتب سيرتي أحد"
زياد

رجعت من مكتب البريد أحمل طرداً بريدياً، ما إن اتصل بي مكتب البريد يُعْلِمُني بوصول طردٍ مسجّلٍ من المغرب العربي حتى أسرعت إلى مكتب البريد، تركت التلفاز، وكنت أتابع برنامجاً علمياً عن أنواع غريبة من أسماك القرش في أعماق المحيط، أخذت سيارة أجرة، وتسلمت الطرد، قررت الرجوع بالحافلة، طرد ثخين، وزنه ثقيل، لا شك أن فيه كتاباً مجلداً، هل أنتظر لأفتح الطرد في البيت؟ الحافلة تقف عند إشارة المرور، أفتح الطرد، وإذا فيه طبعة مغربية جديدة للشاعر ابن مدينتي الذي أعددت دراسة عنه.

*

كنت قبل سنة تقريباً قد أنجزت دراسة عن الشاعر ابن مدينتي، تناولت شعره بالدرس، وهو متوفى منذ عشر سنين، اعتمدت في دراستي لشعره على ديوانه فقط، وفق المنهج البنيوي، ولكن بعد ذلك قررت إجراء دراسة عن حياته، ألقيت ثلاث محاضرات عن شعره، استقبلها كثير من المثقفين والحضور بالترحيب، حضرها أيضاً بعض أقاربه وأصحابه القدامى، لامني هؤلاء بصورة خاصة على إغفالي الحديث عن سيرته، أكدت لهم أن منهجي النقدي لا يتطلب مني دراسة حياته، لكنهم أكدوا لي أنهم يعرفون أشياء كثيرة عنه، يمكن أن يزودوني بها، وزوّدوني بأرقام هواتفهم، وأخذ بعضهم رقم هاتفي ووعدوا بالاتصال بي.

مرت عدة أشهر لم يتصل أحد، بادرت أنا إلى الاتصال، التقيت أول ما التقيت أخاه في عيادته، وهو طبيب، قال لي: "عندي كثير من أوراقه، حاولت زوجته الاستيلاء على هذه الأوراق، ولكن سبقتها أنا واحتفظت بها، أوراقه بصراحة قليلة، كان يكتب القصيدة كلها دفعة واحدة، ولا يراجعها، ولا ينقحها، وهناك دفتر صغير هو على ما يبدو مذكراته، سوف أصورها كلها، وأعطيك إياها"، شكرته وخرجت، مر شهر ولم يتصل، واتصلت به أربع مرات، وفي كل مرة كان يعطيني موعداً جديداً، وأخيراً قال لي وهو يكلمني عبر الهاتف:"لا يسرني أن تكتب عن حياته، ففي حياته جوانب غير سارة، ويؤسفني أن أخبرك أنني كنت أحتفظ بأوراقه في قبو في دار الوالد، وعندما بيعت الدار وانتقلتُ إلى دار جديدة تخلّصت زوجتي من تلك الأوراق فيما تخلصت من بقايا وأثاث قديم وأشياء مستهلكة، ربما حرقتها، أو رمتها في القمامة، وأنا أعتذر إليك"، وسألته عن زوجة الشاعر، وهل بإمكاني معرفة عنوانها؟، فأخبرني أنها توفيت قبل عامين.

ثم التقيت بشخص زعم لي أنه كان من أعز أصدقائه، وهو في نحو الثمانين، أو الخامسة والثمانين، ولكنه قويّ البنية، بدين، ممتلئ، له بطن كبيرة، استقبلني في بيته، شدّ على يدي بقوة، وأخذني إلى غرفته الداخلية، وهو غنيّ يسكن في فيلا واسعة، جاءتني الخادمة بقهوة فاخرة جداً، ثم أشار عليها بالانصراف، وفاجأني، إذ نهض وفتح خزانة صغيرة، فيها أصناف من زجاجات الخمر، التفت ليسألني:"ما رأيك في كأس من الويسكي، بلاك هورس، أجنبي مستورد، أو كأس براندي؟"، شكرته، قلت له:"لا أشرب"، سألني:"على الإطلاق؟"، قلت له:"على الإطلاق"، دهش وقال:"كيف تزعم إذن أنك كاتب وأديب وناقد؟ وكيف يمكن أن تكتب من غير أن

تشرب؟"، لم أجب عن سؤاله، قلت له في نفسي: "وأنت يا من تشرب، كم كتبت؟"، ثم حاولت استجراره للحديث عن صديقه الشاعر الذي كان من أعز اصدقائه، وفق كلامه، أمضيت ساعتين إلا ربع الساعة في ضيافته، أمضاها كلها في الحديث عن مغامراته في أيام الصبا وخليلاته وأسفاره، ولم يأت على ذكر الشاعر سوى مرة واحدة، ذكر لي أنه تعرف عليه في أحد المطاعم في العاصمة، وقد دعاه إلى مائدته، فقبل الشاعر دعوته، وأسرف في تلك الليلة في الشرب، ثم أوصله في سيارته بنفسه إلى الفندق الذي كان ينزل فيه، وقد آلمه جداً أن الفندق الذي كان ينزل فيه الشاعر، لم يكن بالمستوى الذي يليق بمكانته الاجتماعية.

وذات يوم دخلت إلى مكتبة للسؤال عن كتاب كنت أبحث عنه، فنهض لاستقبالي رجل شائخ، وقال:"أنت المهتم بابن مدينتنا الشاعر"، قلت له: "نعم"، وعرفني عليه صاحب المكتبة، فقال: "الأستاذ كان موظفاً في دار الكتب الوطنية وهو يعرف الشاعر، وعنده ذكريات عنه تفيدك في بحثك"، ثم دعاني للجلوس في موضعه إلى جوار ذلك الرجل الشائخ، الذي بدأ يتكلم، فقال:" كان رحمه الله، يأتي كل يوم إلى المكتبة، من بداية الدوام إلى نهايته، كأنه موظف، وفي كثير من الأحيان نأتي إلى المكتبة، فنجده أمام الباب الخارجي ينتظر وصولنا، وفي كثير من المرات ينتهي الدوام، وننهض للانصراف وهو قاعد وراء الطاولة والمعاجم أمامه، لا يرفع نظره عنها، يأخذ كلمة من هنا وكلمة من هناك، عنده صبر لم أجد مثله في الصبر، وكان معه دائماً أوراق كثيرة، يكتب ويمزق، ويترك الأوراق على المنضدة، وكان الآذن عندنا، رحمه الله، يضجر من تلك الأوراق، وقد شكاه مرة إلى المدير، فقال له: "سامحه، هذا شاعر"، لو أعرف أنه ستكون له هذه المكانة

الكبيرة بعد موته كنت احتفظت بتلك الأوراق، قيمتها اليوم لا تقدر بثمن"، وقبل خروجي يحدثني صاحب المكتبة قائلاً:"أنا عرضت عليه قبل وفاته إعادة طبع ديوانه، فهو لم يُطْبَع سوى مرة واحدة قبل وفاته بعشرين سنة، ولم ينشر بعده أي شيء، عرضت عليه مبلغاً جيداً مقابل شراء حق النشر، لكنه اعتذر، وزعم أن الديوان سينشر في بلد عربي، أنا لم أصدقه، كان فيما يبدو يريد مبلغاً أكبر".

أدهشني هاتف من سيدة ادّعت أنها كانت إحدى خليلاته، دعتني إلى لقائها، سألتها أين يمكن أن نلتقي؟، أجابت حيث تريد أنت، ثم اقترحت المطعم الذي كانت تلتقي هي فيه بالشاعر، سألتها: "كيف سأعرفك؟"، قالت:"اقرأ ديوان الشاعر، وستعرفني من خلال وصفه لي، كل قصائد الحب التي قالها كانت لأجلي أنا"، أغراني جوابها بلقائها، قلت في نفسي:"مغامَرَة، سأخرج منها خاسراً من غير شك"، سبقتها إلى المطعم، وبعد ربع ساعة من الانتظار، وراء منضدة قريبة من الباب، دخلت امرأة في الخمسين من عمرها، بدينة، شعرها مصبوغ بالأصفر، ترتدي ثياباً زاهية، تتأبط حقيبة نسائية كبيرة عليها صور ورود كبيرة، تحمل كتاباً، تنبهت إلى أنه ديوان شعر الشاعر، عرفته من جلده القديم الممزق، فطبعته الوحيدة مميزة، نهضت في إثرها، ناديتها فالتفتت، رحبت بي، لم تعتذرْ لتأخرها، أشارت إلى ركن في عمق المطعم، وقالت:"هنا كنا نلتقي"، المطعم يغص بالرواد، والساعة تشير إلى الثالثة، هو موعد الغداء، وعلى الفور جاء النادل، وسأل عن رغبتنا، تنهدتْ ثم قالت:"أنا عادة لا أتناول غير الفواكه، عندي برنامج غذاء محدد، ولكن، كرمى لروح الشاعر، سأطلب ما كنت أطلب في لقائنا اليومي هنا في هذه الزاوية وعلى هذه المائدة"، والتفتت لتقول:"هذه أول مرة

بعد عشر سنين أدخل المطعم لأجلك، يعز عليّ دخول نفس المطعم الذي كنت ألتقي فيه بالمرحوم، كان صاحب ذوق، كان يحمل ديوانه هذا، ويقرأ لي قصائده، هذه نسخته الخاصة، آثار أصابعه ما تزال واضحة على الصفحات، على الصفحة الأولى الإهداء الخاص منه، وتوقيعه بخط يده، ولكن للأسف في ساعة غضب مني وقهر وحزن مزقت هذه الصفحة، كنت سأمزق الديوان كله، مرت بي مرحلة كنت لا أستطيع فيها رؤية صفحات هذا الديوان، كنت أحاول الهرب من كل شيء يذكرني به"، وتواري وجهها بيديها، تمسح عينيها بمنديل ورقي، لدى مغادرة المطعم وضعتْ يدَها على يدي، همست:"كان يصحبني في سيارة الأجرة إلى البيت، وألحّ عليه دائماً ليشرب فنجان قهوة في شقتي، وكان لا يردّ لي طلباً"، أشرتُ إلى سيارة أجرة، فتحتُ لها الباب الخلفي، صعدتُ أنا إلى جوار السائق، نزلتُ أمام العمارة التي تقع فيها شقتها، مددت يدي أنا إليها مودِّعاً، وهمستُ:"شكراً لتعرّفي على ملهمة الشاعر الكبير"، علقتْ:"ولكن ما حدثتُك بعد عن الشاعر، عندي صور خاصة له، وبعض الهدايا منه، اطّلاعُك عليها ضروري"، أجبتها:"عرفت شقتك، يسرني أن أزورك في وقت آخر"، قالت:"أمانة، لا بد أن تَذْكُرَني في دراستك عنه"، ودّعْتُها ومضيت.

قبل شهر اتصل بي بالهاتف رجل قال لي:"أنا من هواة جمع الكتب النادرة، عندي نسخة من ديوان الشاعر، وأنت تعرف أن طبعة ديوانه وحيدة، وقد نَفَدَتْ قبل وفاته بزمن، وعلى هذه النسخة إهداء بخط يده، إلى صديقه المحامي فلان، وقد عثرت عليها قبل يومين عند بائع كتب على الرصيف، اشتريتها منه بسعر رخيص، علمت أنك مهتم به، يمكن أن تدرس خطه وتعرف شخصيته من توقيعه، عرض علي أحد

الأشحاص مبلغاً جيداً ثمن هذه النسخة، ولكن علمت أنك مهتم به، أنت الأولى بها، يمكن أن أبيعك النسخة بسعر مناسب"، شكرته، قلت له:"عندي نسخة مصورة من الديوان، أشكرك"، قال:"ولكن هذه نسخة أصلية"، قلت له:"لا تهمُّ في دراستي النسخة الأصلية، أشكرك".

*

الضوء الأخضر في الإشارة يضيء مرتين وينطفئ قبل أن تصل إليه الحافلة، الزحام شديد، وأنا أتأمل الديوان، الطبعة المغربية أنيقة جداً، فاخرة، مجلّدة ومذهّبة، أخذتُ أتصفّحها، في ثناياها ورقة مطوية، أفتحها، آخذ في قراءتها: "الأستاذ الفاضل، اطّلعت على دراستكم المنشورة في مدونتكم عن الشاعر ابن مدينتكم، وأفدت منها، فأنا أعدّ أطروحة دكتوراه عن النزعة الصوفية في شعره، معظم قصائد الديوان تأمُّل روحي شفيف، في وقت قلَّ فيه هذا النوع من الشعر، وأظنك توافقني على اختيار هذا الجانب في شعره، فهو الأبرز في الديوان، ومن حسن حظي أني قد التقيت الشاعر هنا في الرباط، عندما زارنا ـــ رحمه الله ـــ قبل وفاته بثلاث سنوات، وكان مثالاً للرقة واللطف، مديد القامة، أنيق المظهر، حلو الحديث، جيد الإلقاء، قليل الكلام، لا يتحدث عن نفسه، جيد الحفظ للقرآن الكريم، حضرت الصلاة، دعوناه ليؤمنا فتلا علينا أجمل تلاوة من سورة آل عمران، وقد تنازل عن حق نشر ديوانه لدارٍ هنا ترعى الأيتام، ونحن نعتذر لتأخرنا في نشر الديوان، بسبب الضائقة المالية، تم نشره قبل عامين فقط، ولم يكن لدينا وسيلة اتصال بذوي قرابته، ولكن بعد الاطلاع على عنوانك من خلال مدوّنتك، نرسل إليك نسخة هدية من الطبعة المغربية لديوانه، لم نَدْعُ أحداً من الأدباء هنا ليكتب للديوان مقدمة، لأنه في شعره وشخصه لا يحتاج إلى

من يقدمه، ويسرنا أن نرسل إليك لاحقاً خمسين نسخة لأسرته وأصدقائه، إذا لم يكن في هذا إزعاج لك، أو توافينا بعنوان أحد من أفراد أسرته، رحمه الله"، الضوء الأخضر يشع، الحافلة تنطلق.

أطفال...

في ظل جبل أخضر، ينساب الماء العذب الصافي هادئاً في جدول رقيق صغير، يشف عن الحصى الأبيض الناعم، وعلى الضفة طفل صغير يصنع زورقاً من ورق، كي يبحر مع الجدول.

*

في سهل منبسط، وبين أغصان شجيرة ناعمة، شبكة جميلة من خيوط حريرية، نسجها بروعة عنكبوت صغير، وشعاعات الشمس الملونة تنساب عبر النسيج، فتتألق جميلة، أمامها وقف طفل صغير، يحمل ورقة وقلم رصاص، وأخذ يرسم شبكة العنكبوت.

*

أمام زجاج نقي نظيف يتألق، في حي غني راق جداً، في العاصمة الكبيرة، وقف طفل في ثياب مهترئة، يسيل لعابه أمام الدمى والألعاب يشف عنها الزجاج المتألق، وعلى صفحة الزجاج النظيفة يرى شعره الأشعث وأنفه المتسخ وثيابه المهترئة التي لا تشبه ثياب الدمى.
يلتقط من الأرض قطعة حجر، يتلفّت يمنة ويسرة.

القمر غاب وطلعت الشمس

أرجع في الثانية بعد منتصف الليل إلى البيت، أنزل من سيارة الأجرة أمام باب العمارة، أنفح السائق ستين ليرة، وفق العداد، يقول لي:

ـ لا أقبل بأقل من مئة، لا لأننا في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، ولكن لأن الحي هنا هادئ، ولا راكب في مثل هذا الوقت، وسأرجع من غير زبون، أنت رأيت الحيّ الذي حملتك منه، الناس هناك لا ينامون.

أتضايق من ثرثرته، أدرك أنه لا مجال لإقناعه، أعطيه أربعين ليرة، أغلق باب السيارة، وأمضي. أنا مسرور ولن أجعل كلامه يعكّر مزاجي، وكلامه من وجهة نظره صحيح، الحقيقة لا حركة في حيّنا ولا حياة، أنا نفسي سئمت من هذا الحي.

أصعد الدرجات العشر، إلى الدور الأول، وأنا أحمل كيسين مملوءين بالفاكهة، أفتح الباب وأدخل، أجد زوجتي وراء الباب مباشرة، تتناول مني الكيسين.

ـ رأيتك تنزل من سيارة الأجرة، كنت في الشرفة، أنتظرك.

أسألها بحنان وأنا أمسح على رأسها، وأقبل خدّها:

ـ لم تنامي؟

ـ لا أنام قبل مجيئك، كنت أقرأ في جريدة المساء، وأتأمل النوع الجديد من السمك الذي اشتريته أمس، هو جميل، ويعيش في الحوض بتآلف مع الأنواع السابقة.

ونمضي معاً إلى المطبخ، تفرغ الفاكهة في وعاء، وتأخذ في غسلها، وهي تقول لي:

ـ سنذهب إلى النوم، أنت تعبت من السهرة عند صديقك.

ـ أمامنا النهار بطوله، لا يجوز ترك هذا الليل الرائق الجميل، تعالي إلى الشرفة، لنستمتع بالسمكات وهي تسبح في الحوض، ونصغي إلى خرير الماء في البركة، وهات معك صحن فاكهة.
ـ عندي في الثلاجة مرطبات.
ـ هات، أنا سأحمل الفاكهة، وأنت أحضري المرطبات.
أسبقها إلى الشرفة، ألتقط ياسمينات بيضاء ناعمة من العريشة التي تملأ فضاء الشرفة، أنثرها فوق البركة، والماء يتقافز منها رذاذاً، أنقر بإصبعي على قفص الكناري الأصفر، فيخرج رأسه المطمور تحت جناحه، ويلتفت إليَّ مذعوراً.
تدخل زوجتي وهي تحمل كأسين من المرطبات وهي تقول:
ـ لا توقظ الكناري، ماذنبه؟
ـ يجب أن يشاركنا السهرة، أحب سماع تغريده.
أتناول منها المرطبات، أضعها على منضدة صغيرة مقابل الأريكة، ونجلس متجاورين.
ـ تكفيك السمكات في الحوض، وهي مثلك لا تنام.
أنهض إلى شجيرة الغاردينيا، أتنسم شذاها، أرى ورداتها البيض المتألقة كالنجوم، أقطف واحدة، أقدمها إليها، ونأخذ في تناول المرطبات، والنسمات الصيفية الناعمة تداعب العيون.
ـ انظر إلى القمر، وهو يميل إلى الغروب، كأنه حز برتقالة.
ـ لو رأيته معي من سطح البناء، حيث شقة صديقي أبو خالد، كان أقرب إلينا، هو حقيقة من فضة.
ـ سهرتم على السطح؟
ـ داره من غرفتين صغيرتين ومطبخ أصغر فوق سطح العمارة أمامهما فسحة صغيرة، العمارة من أربعة أدوار، شقته في الدور الخامس، صدقيني أتمنى أن يكون بيتنا في الدور

الخامس، صعود الدرج رياضة مفيدة، صعدت الدرج كله من غير توقف، لأ، توقفت مرة واحدة، أو مرتين، لم ألهث، ولم تؤلمني ركبتاي، قلبي بخير، ولله الحمد، أنتِ اعتدتِ على الكسل، بيتُنا في الدور الأول، تكاسلتُ، وما عدتُ أصعد الدرج.
ـ لا تحسد نفسك، لا تنس، أنت في الخامسة والستين.
ـ صدقيني أتمنى أن أزوره كل يوم، لو رأيت الحي الذي يسكن فيه، المحلات على طرفي الشارع، باعة لحوم وفاكهة وأحذية وألبسة وأدوات منزلية وصيدليات، خرجت من بيته في الواحدة والنصف والمحلات كلها مفتوحة، وفور وصولي إلى الشارع جاءت سيارة أجرة، هنا في حينا أنتظر نصف ساعة في النهار حتى تمر سيارة أجرة، وبيته يطل على الشارع، صوت الباعة والناس والحركة والسيارت يصل إليك، أنا وقفت أطللت على السوق، كأني أمام حوض سمك، أجمل من هذا الحوض.
ـ وهو أكبر منك بالعمر، كيف يصعد إلى الدور الخامس؟
ـ همَّتُه أقوى من همتي، وظهره مثل ظهر الشباب، صدقيني طوال الطريق ونحن في القطار راجعين من العاصمة، ما أغفى ولا ثانية، خمس ساعات، وهو يحدّثني ويسلّيني، ما شعرت بطول الطريق، صحبة السفر ممتعة، فور انطلاق القطار التفت إلي، عرّفني على نفسه، وبدأ الحديث معي، حدثني عن حياته كلّها، وعن أولاده الخمسة، كأنه لا يعرف الهم، كأنه لا مشكلة في حياته، سعيد متفائل، وفور نزولنا من القطار أعطاني عنوانه ورقم هاتفه ودعاني إلى زيارته، من الجميل تكوين صداقات جديدة في هذا العمر، كل الأصدقاء القدامى تخلوا عني، وأنا تخليت عنهم، مات من مات، وسافر من سافر، حتى من بقي على قيد الحياة ما عاد يتصل ولا يسأل، وأنا أعترف بتقصيري، هذا الرجل حيوي وودود، زوجته رحبت

بي بحرارة، كأنها تعرفني من مئة سنة، وكانت تتوقع زيارتك لها معي، شعرت بالحرج لأنك ما كنت معي.
تضع كأس المرطبات من يدها وتعلّق:
ـ هذه صداقة غريبة، نشأت بسرعة من لقاء عابر في طريق السفر؟ أنا لا أحب الصداقات الجديدة، ولا أحب مغادرة هذا البيت، تعبنا في تأسيسه، لا أجد حيث ذهبت أجمل منه، الشرفة وحدها جنة، اتركني سنة هنا وحدي لا يهمني، أنا في قصر، سبع غرف، إذا ضجرت من غرفة أذهب إلى غرفة ثانية، والشرفة هي الجنة في الصيف والشتاء، تطل على الشرق والغرب والشمال، هذه النسمات النقية ما لها مثيل، الشارع الذي نحن فيه لا تمر به سيارة، الهواء نقي.
أضع كأس المرطبات من يدي وأقول:
ـ ولكن صدقيني، أنا مللت، بدأت أشعر بالوحدة والضياع، سبع غرف، صحراء قاحلة، لو رأيت أنت داره، كلها بمساحة المطبخ عندنا، بما فيها فسحة السطح، عنده أحسست بذاتي، أنا موجود، أنا أكبر من المكان، أستطيع الإحاطة بالشقة كلها، أستطيع حملها على راحة كفي، هنا أنا نملة أو حبة رمل، الأولاد كبروا وتزوجوا، بقيت أنا وحدي، تمنيت بيع هذه الشقة، وشراء شقة صغيرة مثل شقته، فوق سطح العمارة، والعيش فيها.
تنهض فجأة، تهم بالاتجاه نحو الداخل، وهي تقول مستنكرة:
ـ لست وحدك، أنا معك، سأجهز لك فنجان قهوة، ولن ننام حتى يشع الضوء، كما قلت، ونرى إشراقة الشمس، إطلالتها وحدها مع الفجر تمنحنا كل يوم حياة جديدة.
ـ اقعدي، لن أشرب القهوة، سنتناول هذه الفاكهة.
الكناري يأخذ في التغريد، الأسماك تسبح في الأضواء المتلألئة داخل الحوض، والياسمينات البيض تهمي من العريشة،

لتسقط في البركة، والماء يتقافز منها، والقمر يميل أكثر فأكثر نحو الأفق الغربي، وقد أخذ يميل إلى الاحمرار.
أناولها تفاحة، تتردد في أخذها، ولكنها تأخذها.
ترجع إلى موضعها على الأريكة بجواري وهي تتكلم:
ـ بالله عليك، أسألك، ما مللت من السهرة عند صديقك الجديد؟، صديق السفر، من السادسة إلى الثانية، ثماني ساعات؟ ما تعبت من الأحاديث، لا شك، عنده أحاديث وموضوعات جديدة، ولكن ثماني ساعات كثيرة ومملة.
ـ حاولت إنهاء السهرة، نهضت في العاشرة، ولكن جاءت صديقة زوجته، جارتها.
تتكلم بهدوء ساخرة:
ـ والتأم شمل العجائز، صديقك، وزوجته، وجارتها، ومن قصة إلى قصة، حتى الثانية بعد منتصف الليل، شلة عجائز.
ـ جارتها صبية.
ـ صبية؟ وسهرتْ مع عجائز؟!.
ـ لأ، ما هي صبية، هي متقدمة في العمر، في الأربعين.
ـ وكيف تترك زوجها وتسهر معكم؟.
ـ أرملة، زوجها ميت.
تنهض، تضع التفاحة على المنضدة، تهم بالمضي إلى الداخل، وهي تقول، ونَفَسُها يتقطّع:
ـ الآن فهمت، لذلك أنت معجب بالحي والحارة والعمارة والشقة الصغيرة، تريد بيع هذه الشقة الكبيرة، والسكن في شقة صغيرة، لا بأس، جرب الشقة الصغيرة، اشتر شقة صغيرة، وجرب العيش فيها وحدك، اترك هذه الشرفة الواسعة الهادئة المملة، هناك تشعر بذاتك، وتحس بوجودك، هذا أفضل من إحساسك بالضياع، اتركني هنا وحدي، أنا لا أمل.

ـ أرجوك لا تغضبي، اقعدي، كنت أمزح معك، كلام في كلام، قصة الجارة الصبية حكاية مخترعة، حتى تغاري.
ـ لا أصدق.
ـ في المرة القادمة نزورهم معاً، لتري بنفسك.
ـ لن نخرج من البيت بعد اليوم.
ـ لا بأس، سندعو صديقي الجديد، هو وزوجته.
ـ وجارته؟
ـ إذا وافقت أنت دعوناها.
تتكلم وهي ما تزال واقفة، تستند إلى الباب المؤدي إلى الداخل:
ـ أنت نعست وتعبت، وبدأت تهذي، هيا إلى النوم.
ـ لن ننام، لم يغب القمر، ولم تشرق الشمس، لا عمل لنا في النهار، يمكن أن ننام طول النهار.
ـ طبعاً أنت راجع من السهرة في غاية السرور، ولا تريد النوم، التقيت بأصدقاء جدد، وجارة صبية، جددت حياتك.
ـ لا، الجو الجميل شجعني على السهر، وحضورك الأجمل، اقعدي، لا تبقي واقفة.
ـ لا، سأبقى واقفة، لم تقل لي حتى الآن اسم صديقك، حدثتني عنه، قلت هو أبو خالد، وما ذكرت اسمه؟!.
ـ اسمه مازن قدح.
تضع يدها على فمها وتصيح مدهوشة:
ـ ياه، مازن قدح؟؟
ـ نعم، مازن قدح.
ـ ما هذه المصادفة؟ أسمر طويل، وفي ذقنه خال أسود، وهو أكبر منك، في السبعين أو أكثر، كان مدرس مادة الرياضيات.
ـ نعم، كيف عرفته؟
تضحك، تقهقه، تتكلم بطلاقة:

ـ هذا أستاذي، درسني في الثانوية، وأعطاني الدروس الخاصة في البيت، وتقدم إلى خطبتي، لو أعرف كنت زرته معك، لا بأس، سنزوره وسندعوه إلى زيارتنا.

أنهض غاضباً، أقول لها مستنكراً:

ـ أنا لا أصدق، هذا الكلام لإغاظتي.

تضحك، تقهقه، تؤكد:

ـ صدق أو لاتصدق، ظل سنة كاملة يتردد علينا، يتودد إلى أبي، يريد خطبتي، بذل المستحيل ليتزوجني، هو كثير الكلام، قادر على الإقناع، أنا أعجبت به، أبي لم يوافق، أبي كان يريد متابعتي الدراسة.

ـ يكفي، هذا كله غير صحيح.

تتابع بهدوء غير مبالية، وهي تضحك:

ـ تزوج إيمان، زميلتي في الثانوية، فشلت في امتحان الشهادة الثانوية مرتين، فتزوجها، وتركت الدراسة، زوجته شقراء قصيرة، صحتها موفورة.

أترك التفاحة من يدي، أهمس لها بهدوء، مغيراً من لهجتي:

ـ القمر غاب، والشمس طلعت، تعبنا، حان موعد النوم، يجب أن ننام ونستريح، السهر الطويل متعب.

آخر حكايات جدتي

روت لي جدتي، رحمها الله، مئات الحكايات، وقد دوّنتُ بعضها، ثم مزقتها للأسف، لأنني رأيتها سخيفة ولا قيمة لها، وقد أنستنيها الأيام، ولم يبق منها في الذاكرة إلا قليل، ومنها هذه الحكاية التي ارتأيت أن أرويها بالطريقة التي كانت ترويها لي وبالطريقة التي كنت أسمعها منها. هكذا كانت تبدأ:"كان ياما كان، نحكي إلا ننام، إلا نصلي على النبي العدنان، كان في قديم الزمان مختار على واحدة من هذه البلدان"، وجدتي لا تعرف بالضبط معنى قديم الزمان، ولا معنى هذه البلدان، وكنت أسألها:"في عهد هرون الرشيد؟"، فتجيب وهي تشير بيدها: "لا، هرون الرشيد رجل عادل"، وأسألها في العهد العثماني، فتقول: "لا أعرف، ما هو العهد العثماني؟"، فأقول لها:"يعني العصملي، في زمن سفر برلك"، فتقول:"من الممكن"، وأعود فأسأل:"في زمان الفرنسيين"، فتقول:"لأ، في زمن الفرنسين كان الشعب كله على قلب واحد، كلهم ضد الفرنسيين، ما أحد كان يظلم أي أحد، وذلك الوالي كان من الظَّلَمة، مع أن والده وجده وجد جده كانوا عادلين، ورث الولاية عنهم، ولكن ماورث العدل، يستولي على الموسم، ويأخذ الدجاج والحليب والعسل، ويتزوج أجمل بنت، المهم، في يوم من الأيام، مرض، أصابه الفالج، نصفه الأسفل انشل، ما عاد يقدر يمشي، يحمله أولاده على الكرسي، وتأتيه الوفود من كل القرى والمدن، وجاء إليه الدكاترة، وما في فائدة، وذات يوم مع الفجر سمعنا الزغاريد، وركض الناس"، أقاطعها وأنا أسأل:"أنت سمعت الزغاريد؟،

وهل كان على زمانك؟"، وترد بغضب:"لأ، ما كان على زماني، هذا كان في قديم الزمان، هذه حكاية"، وتصمت مستاءة، ثم تتكلم:"وذبحوا الذبائح، وسبعة أيام الموائد عامرة، الملك نهض ومشي على رجليه، ما سألتني كيف شفي؟"، وأسألها:"كيف شفي؟"، وترد:"رأى الرسول في منامه، وقال له: انهض يافلان، مبارك أنت وبيتك وذريتك وذرية ذريتك، ونهض ومشى، وجاءته الوفود، وفد من بغداد، ومعه التمور، ووفد من مكة ومعهم ماء زمزم، ووفد من مصر ومعهم لا أعرف ماذا عندهم، ذهب ألماس فضة، ماء من نهر النيل، عدا الوفود من كل المدن، حتى قالوا أتاه وفد من الصين ومعهم الجواهر والهدايا، واغتنى لولد ولده، وبدأ الناس يتبركون به، وفجأة قرر الزواج من بنت ملك العجم، زاره، فأعجبته، ووافق والدها، لا أحد يرد طلبه، حتى ملوك العجم كانت تخاف منه، ظالم، والظالم الناس تخاف منه، صار ملك الملوك، كل المدن حواليه انضمّت إليه، كان يرسل جيشه، وقبل وصول الجيش ترفع المدن كلها الراية البيضاء، حتى استولى على تركيا كلها، ووصل إلى إسطنبول، وزار بلاد العجم، ورأى بنت الملك، بيضاء شقراء بعيون زرقاء، هل تعرف غايته من الزواج منها؟ قل لي لأ، حتى أقول لك"، وأقول لها:"لأ"، فتقول:"ملك العجم ماعنده ولد، وبنته سترث الخلافة من بعده، وتصير هي الخليفة"، أقاطعها:"لا يجوز أن تصبح المرأة خليفة"، وترد:"عند العجم كل شيء يجوز، وكانت غاية الوالي من هذا الزواج أن يصبح هو ملك العجم بعد ما صار ملك العرب، عرفت؟"، أقول:"عرفت"، وتتابع: "وجن جنون زوجته، طبعاً آخر زوجة، كانت عنده ثلاث زوجات، كيف تقبل بزواجه عليها؟ والمرأة تغار، وفضحته بين الناس، سيرته صارت على كل لسان، ما هو مبارك ولا

نبي ولا ولي، دجال وكذاب، لا رأى النبي ولا زراه ولا باركه، والأهم من هذا كله ما أصيب بالشلل ولا الفالج، ياناس، هذا كذب عليكم، وأنت صليتم له وقدستم اسمه، وجمعت الناس في ساحة القصر، ونادت أولادها الثلاثة، وقالت للناس أسألوهم، وأقسم أولادها الثلاثة على التوراة والإنجيل والمصحف، وأقسمت زوجته الأولى والثانية والثالثة، ومن أدرى بالرجل؟ طبعاً زوجته، ونزل من عين الناس، وبصقوا عليه، ورجموه، وخاصة لما عرفوا أنه سيتزوج بنت بلاد العجم ويبيع البلاد لوالدها، ويصبح والدها هو الملك عليهم، وبعد ما يموت أبوها تصير هي الملكة، وبعد ماتموت يصير هو الملك، ولكن الحمد لله مات، وحلمه ما تحقق، وما تزوج بنت الملك، رجموه حتى مات"، وتلتقط أنفاسها، ثم تقول:"توتة توتة خلصت الحدوتة، حلوة إلا مفلوتة"، وأسألها:"وعنده ثلاثة أولاد، ما صار واحد منهم هو الملك من بعده؟"، وتسكت، ثم تقول:"قلت لك ما هو ملك، هو والي، الملك العصملي حطّ غيره من ضيعة ثانية، رجل غريب صار هو الوالي، لا تسألني بعدها عن أي شيء، نشف ريقي، قل لي حكايتك حلوة"، وأرد:"لأ ، حكايتك مفلوتة، مرّة قلتِ لي هو ملك ومرة هو والي ومرة قلت هو خليفة ومرة قلت هو مختار"، وترد:"اسمع يابني، هؤلاء كلهم بعضهم مثل بعض، الظالم هو ظالم إن كان الملك أو الخليفة أو الوالي أو القاضي، فهمت؟ والعادل هو عادل، أنا كانت جدتي أم أبي تحكي مثل ما أنا الآن أحكي لك، قالت كان على زمان أول إذا الملك ظلم الناس تأكله"، وأقول لجدتي:"ولكن كيف يأكل الناس الملك؟"، وترد على الفور:"كان من قبل الرجل يأكل الخروف المشوي كله، فإذا اجتمع عشرة رجال فيمكن أن يأكلوا الملك وجد الملك"، وأسألها:"وحالياً الناس لا تأكل ملوكها؟"، وترد:"لأن الناس

ضعفوا مثلك، أنت فخذة دجاجة لا تقدر على أكلها، تذهب إلى السوق وتأكل صندويشة شاورما"، وأرد عليها:"هي أطيب من طبخ أمي"، وترد"إي والله، يا بني، صدقت، عجّل، هات لي واحدة من السوق".

هذه إحدى حكايات جدتي التي مزقتها، لأنني وجدتها في ذلك الوقت سخيفة، ولكن لا أعرف لماذا تذكرتها اليوم.

قبل الاجتماع

مرت ساعة ونصف الساعة، والقاعة تصخب بالضجيج واللغط ودخان السكائر والأنفاس وتعرُّق الأجساد وتصادم الأفكار وحدّة النقاش، خمسة عشر رجلاً يتوزعون حول المائدة المستطيلة في فوضى وقد امتلأ سطحها بأعقاب السكائر وبقايا فناجين القهوة تسكب فوق الغطاء الجلدي المملوء بخطوط حمراء وزرقاء وبثقوب يحدثها سن القلم نتيجة السجال والغضب واندياح كؤوس الشاي تسكب أيضاً على سطح المائدة التي تحمل عشرات الكؤوس البلاستيكية وعدة أباريق للشاي والقهوة وصحون تطفح بالسكر وأقلام وأوراق متناثرة. القوم يتصايحون أصواتهم تتداخل:
سنُلغي علامات الترقيم والفواصل والنِّقاط/ لاضرورة بعد اليوم لترقيم أرقام الصفحات/ سنعزل رئيس التحرير/ لا ضرورة لمنصب رئيس التحرير/ سنلغي وظيفة المصحح اللغوي/ سنلغي بعض الأحرف مثل السين والصاد/ بل سنلغي حرف العين/ سنحول المجلة من شهرية إلى أسبوعية/ بل يومية/ سنصدر أعداداً بيضاء لا كلام فيها/ نحن ــ المحررين ــ وحدنا من يملك المجلة/ سنلغي صفحة الغلاف/ لا ضرورة لوجود مقر للمجلة/ الفضاء الرقمي هو مجالنا/ سنطلب من المشتركين دفع رسوم الاشتراك سلفاً لعشر سنوات/ كل من يكتب في المجلة هو مدير المجلة ورئيسها والمحرر فيها/ سنكتب الأسطر فيها من اليسار إلى اليمين، سنفعل كل شيء/ سنضع أعداد المجلة داخل علب العصير لتحل فيه ويكون

شرب الحروف بدلاً من قراءتها/ بل سنفرم صفحاتها مع اللحم لتدخل في المعدة مع الهمبرغر.
يظهر رجل، لا أعرف من أين دخل، طوله متران ونصف، عرض صدره متر، كأنه قد من صخر، يقعد على رأس المنضدة، وجهه ضخم، رأسه كبير، هذه أول مرة أرى رجلاً مثله، وهذا أول اجتماع أحضره، ظهره مشدود بقوة، كأنه صنع من حديد، لا أظن أن رحم أم قد حمله، وإذا مات فلا يمكن أن يتسع له تابوت، كأنه لن يموت، اللغد يتدلى تحت ذقنه العريضة، ويترجرج، شفتاه سودوان سميكتان غليظتان، أحرقتهما السيكارة، فمه واسع عريض، في زاويتي فمه لعاب أبيض، فوق الشفة العليا شاربان أسودان كثان جداً، كأنهما جناحا طائرة مقاتلة معادية، الأنف كبير، مفلطح، كأنه دبابة، والعينان مدورتان صغيرتان جداً غائرتان في محجريهما، متقاربتان جداً تكاد إحداهما تلتصق بالأخرى كأنهما فوهتا بندقية قديمة صدئة مزدوجة، يعلوهما حاجبان كثيفان جداً، شعرهما خشن طويل متناثر كأنه رادار يستطلع الآفاق، جبينه ضيق جداً، لا يتناسب وذقنه العريضة، كأنه خندق متقدم في الجبهة، وجنتاه ممتلئتان جداً، اللحم فيهما متهدل، وشعره أبيض غزير، لم تسقط منه شعرة، مع أنه في التسعين، هو أسمر ضارب إلى السواد، يرتدي بدلة سوداء، وتحتها قميص أبيض، بطنه كبيرة جداً تعلو ظاهرة من وراء الطاولة، كأنها مجسّم للكرة الأرضية، وهو يريد أن يستولي عليها، ترتاح فوقها نهاية ربطة عنقه السوداء المخططة بالأبيض، يمد يديه الاثنتين فوق سطح الطاولة، وهو يعقد قبضتيه، كأنه يمسك بشيء يتشبث به جيداً حتى لا يفلت من يده، وكأن قبضتيه مصفحتان رابضتان مستعدتان للتصدي لأي خطر داهم. فور ظهوره جمدت حركة القوم، هذا فمه مفتوح ونصف الكلمة

عالق بين أسنانه، الآخر دخان سيكارته خارج من فتحة أنفه وقد جمد، الثالث يده مرفوعة إلى أمام كأنه يؤدي قسماً، وما يزال يؤديه إلى الأبد، الرابع جمد فنجان القهوة أمام شفته والسائل البني الأسود على شفته جمد، الصمت نفسه جمد، كأنك في جبهة والجيش مستعد لا يأتي بحركة حتى لا ينكشف قبل أن ينقض. الرجل يضغط على زر في طرف المائدة فتنفتح في وسطها هوة تسحب الكؤوس والفناجين والأباريق والسكائر والأقلام والأوراق وكل ما كان على الطاولة وكل ما هو جامد في الأيدي ثم تسحب هواء الغرفة فينقى ويصبح صافياً، ثم يضغط الرجل على زر آخر في الطرف الآخر من الطاولة فيتبدل غطاؤها الجلدي كله بغطاء جلدي آخر جديد نظيف جداً ولامع. الرجل صامت، يطول صمته، كأنه تمثال، تمر ربع ساعة من الصمت، والقوم في وقفتهم تماثيل جامدة، ثم يوسوس بصوت ناحل جداً ضعيف غائب كأنه صأصأة فأر:

- رئيس التحرير ينتظركم.

يتحرك الرجال بهدوء، حركة رجل واحد، حركة منتظمة لا خلل فيها ولا فوضى ولا ارتباك، يخلعون قمصانهم المختلفة الألوان، بحركة واحدة منتظمة، مضبوطة على إيقاع نظرة الرجل الثابتة الجامدة، يقلبون القمصان على الوجه الآخر، فإذا الوجه الداخلي لها جميعاً بلون واحد، لا أستطيع تمييزه، هو اللالون، يلبسون قمصانهم على الوجه الجديد بهدوء ونظام وانضباط، على إيقاع نظرة الرجل الثابتة الجامدة، يمد كل منهم يده إلى جيب قميصه، بحركة واحدة منتظمة، على إيقاع نظرة الرجل الثابتة الجامدة، يستل كل منهم قناعاً، الأقنعة واحدة، لونها واحد، هو اللالون، وذات هيئة واحدة، هي اللاهيئة، فلا ملامح ولا تقاطيع ولا قسمات، يضع كل منهم قناعه على وجهه، بحركة واحدة منتظمة، منضبطة على

إيقاع نظرة الرجل الثابتة الجامدة، ينفتح باب جانبي، كان مغطى بستارة، يدخلون فيه واحداً وراء واحد، بإيقاع منتظم منضبط على إيقاع نظرة الرجل الثابتة الجامدة، يدخلون جميعاً. لا أعرف لماذا ليس بيننا امرأة، أظن هذا الرجل لا يريد وجود امرأة، لعله يخجل من صوته، أو لعله عقيم أو عاجز. أنا ما أزال واقفاً، يكاد الرجل ينصرف، كأنه لا يراني، الستارة على الباب السري تكاد تنسدل، أنا ما أزال واقفاً، جمدتني نظرة الرجل الثابتة الجامدة، هل أخرج من حيث دخلت، هل أرجع إلى حيث كنت، أتردد، أحار، أخلع قميصي، أقلبه، وإذا لونه من الداخل هو اللالون، كأقمصة القوم، أمد يدي إلى جيبه، وإذا فيه قناع كأقنعتهم جميعاً، هيئته هي اللاهيئة، فعلتُ ذلك كله على إيقاع نظرة الرجل الثابتة الجامدة. لا أعرف بعد ذلك ماذا فعلت.

غضب لا مبرِّر له

بدأت شعاعات الفجر الأولى تتجلى من الأفق الشرقي مثل موسيقا هادئة تتهادي من أفق بعيد، أزيح الستارة عن النافذة، أنعم بدفء زوجتي، ألتصق بها، هي إلى جوار النافذة، وأنا إلى جوارها، أميل عليها أكثر، أقول لها: "تنويعات النور في الأفق تتغير في كل ثانية"، الكون يضيء، والحافلة تتهادى رخية، الاهتزاز ناعم مثل دغدغة، أخي أحمد في المقعد الموازي لمقعدي، وهو على طرف المقعد، زوجته إلى جوار النافذة، أحمد يغط في نوم عميق، تلتفت إلينا زوجته وتبتسم، زوجتي تصب القهوة المرة في فنجان صغير، تقول لي:"أيقظه، لا يحق له أن ينام ويترك زوجته وحدها"، ولكن بعد قليل، سرعان ما تنام زوجتي وتتركني وحدي. شخير في المقعد الخلفي، وصوت فيروز يتهادى هادئاً ناعماً مثل ضوء الفجر،"دخلك يا طير الوروار، رح لك صوبن مشوار"، لا أعرف كيف ينام القوم، ولا ينعمون بالفجر الجميل، الفجر يصحو، يستيقظ، وهم ينامون. خمسة وأربعون راكباً، نتوجه نحو البحر، رحلة منظّمة، لم يتأخّر أحد، لم يتخلّف أحد، حافلة حديثة، مكيفة، مريحة جداً، سائق لطيف، مرافق يرحّب بنا، يرجو لنا رحلة ممتعة، نحن في أوائل الربيع، الجو دافئ، بعض الغمامات تسبح في السماء مثل بطات بيض، قد يتقلّب الجو، سيكون أجمل لو هطل المطر، من الممكن أن يهطل. سعيد أنا لأننا في الرحلة لسنا وحدنا، أخي وزوجته معنا، سنأنس بهما، أخي مرح، يروي كثيراً من الطرائف، لا أعرف

من أن يأتي بها، أو كيف يحفظها، أو كيف يرويها، بعض طرائفه أعرفها، سمعتها من قبل، ولكنه يرويها بطريقة تجعلني أضحك، هو بدين، كرشه كبير، نهم، يحب الطعام كثيراً، زوجته ناحلة، تجيد طهو الطعام، ولكنها لا تتناول إلا القليل، تعشق القهوة، هي مدمنة عليها، قد تحتسي في اليوم عشرة فناجين، ولها طريقة ممتعة في قراءة الفنجان، مسلية، نحن لا نصدّقها، ولكننا نتسلّى، في كل مرة نشرب فيها القهوة، لا بد من أن نقلب الفنجان، لتقرأه لنا. تمنيت أن أعرف أحداً من المشاركين في الرحلة، ولكن لم أتمكن من معرفة أحد، وجوه جديدة، أكثرهم دون الثلاثين، ليس فيهم من هو كهل مثل أخي أو شيخ عجوز مثلي، أنا في الستين، وأخي في الخمسين، هو يكبر زوجته بسنتين، وأنا أكبرها بخمس. زوجتي تمت بصلة قرابة لزوجته، حدثتني عن هذه القرابة، ولكن نسيتها، أظن أن ابنة عمة زوجته هي زوجة ابن خالة زوجتي، هي ليست قرابة، إنما مناسبة من بعيد، أو مصاهرة، المهم أنهما ودودتان ومتفاهمتان، ولا بد من أن تلتقيا كل يومين أو ثلاثة عند صديقتهما المشتركة حنان، عدا زيارتنا لأخي أو زيارته لنا. البحر؟! يا إلهي، كأنني أراه أول مرة، هو مدهش دائماً، أطللنا عليه والشمس ارتفعت فوقه، وبدأت تنعكس كالذهب فوق الزبد المتألق كأنه حمامات بيض، أتخيل أخي وهو يسبح، وكرشه يطفو، لا أظن أن أحداً منا سينزل إلى البحر، سنتناول الإفطار في مطعم يطل على البحر، ثم ستنطلق بنا الحافلة إلى الجبل، لنتناول الغداء في مطعم على السفح يطل على البحر. إلى المائدة المستطيلة، وقد أعدت للفوج السياحي، نتخذ مواضعنا، أخي وزوجته في الطرف الآخر من المائدة المستطيلة، على بعد ثلاثة أمتار منا، إلى جواري شاب في الخامسة والثلاثين إلى جواره زوجته،

يفاجئني بأنه اختار موضعه إلى جواري عن عمد، هكذا بادر إلى التصريح لي، ثم أخبرني أنه أحد طلابي في المرحلة الثانوية، لم أتذكره، وأنّى لي أن أتذكره؟ هو الآن صيدلي، وزوجته طبيبة، يسترجع أيام الثانوية، ويذكّرني بزملائه، ويعيد علي مواقف وأحاديث لا أكاد أتذكر منها شيئاً، أحياناً أظنه يلفّق الحكايات والقصص، وأحياناً أظنه مخطئاً في التعرف إليّ، فلعلّه شبّهني بأحد أساتذته، ولكنه هو هو نفسه، وأنا أنا نعم، كل ما يحكيه صحيح، ولكن لا أعرف ما بال ذاكرتي وقد مُحِيَ منها كل شيء، ولا أستطيع استرجاع أي موقف، زوجته كريمة، تقدم لي بيضة مسلوقة، وتسكب في صحني قطعة جبن كبيرة، وتأبى إلا أن تضع في فنجاني قطع السكر بنفسها، وهي تصغي إلى حديث زوجها وهو يسترجع حكايات ومواقف من أيام المرحلة الثانوية، ويتحدث عن الأساتذة، وهي تصغي باهتمام وكأنه يحدثها هي، مع أنه متوجه إليّ أنا كلياً. زوجتي أيضاً تتعرف إلى امرأة قعدت إلى جوارها، وهما تتحدثان عن قطعة الكاتو الفاخرة، والمرأة تحدثها عن طريقة إعداد الكاتو، وتؤكد لها أنها تعد أفخر الأنواع بنفسها في البيت، وسرعان ما تستل زوجتي من حقيبتها دفتراً صغيراً وتأخذ في تدوين المقادير وطريقة الإعداد، حتى إنهما تكادان تُشْغَلان عن الطعام. خارج المطعم هيام زوجة أنور، الشاب الصيدلي، تلتقط الصور لي ولزوجها ولزوجتي، ثم يلتقط الصور لي ولزوجته ولزوجتي، ثم يطلب من المرافق في الرحلة أن يلتقط الصور لنا نحن الأربعة، يطلب منه التقاط عدة صور، لا صورة واحدة. وعلى شاطئ البحر يلتقط بعض القواقع والصدفات، يغسلها بماء البحر، يقدمها لي، زوجته تسير إلى جوار زوجتي، وهي تحدثها عن بعض الكريمات المرطبة للبشرة، وأنواع الشامبو المفيدة

للشعر الجاف، وكانت في المطعم قد أعطتها علبة كريم وطلبت منها أن تدهن بها وجهها حتى لا تؤثر فيه أشعة الشمس. ونحن نتوجه إلى الحافلة كانت إلى جوار زوجتي صبية هي مع خطيبها فيما يبدو لي، رجعت زوجتي إلى الوراء، وهي تفسح لها المجال كي تصعد قبلها، ولكن الصبية أبت إلا أن تكرم زوجتي وتكرّمني لنصعد نحن قبلها، ومع انطلاق الحافلة جاءت إلينا وقدمت لكل منا قطعة شيكولاته كبيرة فاخرة، ثم قالت لزوجتي:"أنت ما عرفتني، أنا ابنة أكرم، جاركم قبل أن تنتقلوا من الحي"، دهشت زوجتي وقال لها:"أنت ضياء؟ كبرت، والله ما عرفتك"، أجابتها:"نعم، والشاب الذي معي هو خطيبي ماجد". وفور نزولنا من الحافلة في الغابة تقدمت منا ضياء وعرفتنا على خطيبها ماجد، وأخذنا نسير نحن الأربعة معاً في ظلال الأشجار وهي تسترجع مع زوجتي ذكرى الجوار والحي القديم يوم كانت في السابعة من عمرها وقد بلغت اليوم السابعة والعشرين، وخطيبها يحدثني عن نفسه، وعن مشروع الخطبة وعزمهما على السفر إلى الخليج للعمل، كلاهما مجازان في كلية العلوم، وسيعملان في الخليج مدرِّسين. موائد الغداء صغيرة مستديرة مثل جزر صغيرة تتناثر في بهو المطعم المشرف على البحر، الشاب الصيدلي أنور يشير لي، وقد حجز منضدة إلى جوار النافذة مطلّة على البحر، فنتوجه إليه أنا وزوجتي وندعو الصبية ضياء وخطيبها ماجد، ونلتف نحن الستة حول المائدة، يأبي الشاب أنور الصيدلي إلا أن يجعلني وزوجتي إلى جوار النافذة لنطل على البحر مباشرة، وحين يأتي النادل ينصح لنا أن نختار السمك المشوي، وحين يحضر السمك يأبى إلا أن يدلني بنفسه على طريقة متميزة في فتح السمكة، وإزالة الحسك منها بالشوكة، كي أستمتع بتناولها من غير حسك. نتبادل

الأحاديث وتسترجع زوجتي مع ابنة أكرم ذكرى الجوار والحي القديم، وتمتد بنا الأحاديث، حكايات وقصص السفر وأحلام الشباب ومشكلات المستقبل وأنواع السمك وطرق صيده وإعداده والبحر والموج والسفن وأمنية الجميع في النزول إلى البحر والسباحة ولكن الجو يميل إلى البرودة ولا يساعد، والموج عال والشاطئ صخري. مساء تنزل بنا الحافلة إلى شاطئ البحر، نقوم بجولة حرة، نفاجأ بضياء وخطيبها ماجد، ضياء تقدم لزوجتي عقداً جميلاً جداً من أصداف وقواقع صغيرة ناعمة، العقد مشغول بطريقة متميزة، ماجد يقدم لي سفينة صغيرة مبنية من قواقع وصدفات بشكل مدهش، نشتري لهما إطاراً لصورة مصنوعاً أيضاً من صدفات وقواقع، ونشتري لهما هدية ثريا صغيرة يمكن وضعها في البهو، مصنوعة من صدفات وقواقع بيضاء جميلة، ونسير معاً نستمتع بساعة الغروب، والشمس تميل نحو البحر لترسل شعاعاتها البرتقالية فوق الأمواج، ويتلون الغمام الأبيض بلون الذهب، ويتألق الزبد الطافي فوق الموج. زوجتي تشتري سجادة على شكل لوحة منسوجة على نول يدوي، تقول لي هذه هدية للسيدة الطبيبة هيام وزوجها الصيدلي أنور، سنقدمها لهما في طريق العودة، وفي الحافلة نفاجأ بهما يقدمان لنا صندوقاً صغيراً جميلاً جداً مصنوعاً من القواقع والصدفات، وتقدم لهما زوجتي اللوحة. في مقصف هادئ جميل، قبيل دخولنا إلى المدينة عائدين من الرحلة، نتحلق حول موائد نتناول صندويشات صغيرة ونشرب الشاي، ماجد وضياء وأنور وهيام وأنا وزوجتي نتبادل بطاقات التعارف ويدعو كل منا الآخر إلى التواصل وضرورة اللقاء. عند نزولنا من الحافلة، تقول لي زوجتي:"نحن الأكبر، ما رأيك في دعوتهم إلى الغداء في المنزل أو في المطعم؟"، ويتم الاتفاق

على دعوتهم إلى الغداء في المنزل يوم الجمعة القادم. ولدي حاتم بانتظارنا وقد جاء بالسيارة ليوصلنا إلى البيت، ألتفت، أجد أخي، أدعوه وزوجته لنوصلهما إلى البيت بالسيارة، فيقول:"أشكرك على دعوتك لنا لهذه الرحلة الممتعة، سآخذ سيارة أجرة". وينطلق ابني بنا في السيارة إلى البيت، تلتفت زوجتي إليّ تسألني:" لماذا أخوك غاضب؟"، أجيبها:"لا أعرف، لا مبرّر للغضب".

العشاء مع الزوجة... والأولاد

عجلة القيادة أمامي، "عليك أن تتولى أنت قيادة القطار، أنا ذاهب لأنام"، ولكن كيف سأتولى قيادته، والمقعد الذي أنا فيه هو في الاتجاه المعاكس، ولا شيء أمامي سوى عجلة القيادة، وهي معلقة في مسند الكرسي الذي هو أمامي، أين أذرع التحكم؟، يا إلهي، مئات المسننات وقطع الغيار تتراكم أكواماً أكواماً فوق السكة في مواجهة القطار، "أنت صنعتها بنفسك، وأنت المسؤول عنها، هيا تدبر الأمر، وإلا اصطدم القطار بها"، أين ذراع المكابح، التيار الكهربائي انقطع، لا يمكن للمكابح أن تعمل، يارب، العجلات تسحج، القطار يتوقف.

أفتح عيني.

الحمد لله، هو مجرد حلم، أنهض، أنزل مع الركاب.

*

لن أتناول العشاء في البيت، سأدعو زوجتي والأولاد إلى المطعم، من حق الأولاد أن يستمتعوا بصحبة أبيهم، ومن حق الزوجة أن ترتاح ولو لساعات قليلة من عناء البيت والتزاماته، ومن حقي أيضاً أن أعيش متعة اصطحاب الزوجة والأولاد خارج البيت، كم أشعر بالسعادة حين نجتمع معاً على المائدة، ولا أريد لأمهم أن تنهض عن المائدة لإحضار أي صحن أو كأس ماء.

أنا في الحقيقة متعب وجائع، ولكن ساعة معهم في المطعم تنسيني التعب كله، هأنذا أعود إلى البيت عند العاشرة والنصف، وقد خرجت منه في التاسعة والنصف صباحاً، ساعتان ونصف في الذهاب في الحافلة، وساعتان في العودة بالقطار.

كل ما أرجوه ألا يكون أحد الأولاد قد أخذ السيارة ومضى بها مع أصحابه.
يمكن أن نأخذ سيارة أجرة، ولكن لا تحلو السهرة في غياب أحدهم، لا بد أن نكون جميعنا معاً.

*

أضع المفتاح في الباب، أسمع جلبة في المطبخ، قعقعة صحون ووسوسة ملاعق، وضحكات، وأحاديث، وأصداء صراخ في التلفزيون.
أمضي في الممر الضيق الخافت الإضاءة نحو المطبخ، زوجتي والأولاد حول المائدة وقد فرغوا للتو من العشاء، وهم يجمعون الصحون والملاعق، ويلمّون كسر الخبز وبقاياه، صخبهم يعلو، والتلفزيون يبث مباراة رياضية، عيونهم معلقة بها، وهم يلغطون ويضجون.
كسر خبز كثيرة، وبقايا متناثرة، تجمعها زوجتي، تكوّمها في جانب من المائدة، تحملها، تمضي بها إلى سلة القمامة.

*

جدتي تقول لي:
ـ الخبز نعمة، لا يجوز أن نرمي منه أي لقمة، أبوك يتعب في خبزه، لا يجوز أن نرمي منه أي شيء.
أسمع وسوسة المفتاح في الباب، أسرع، أخرج إلى فناء الدار، القمر ينير الفناء، متغلغلاً عبر أغصان شجرة التوت الكبيرة، ومن خلال أوراقها، ليرسم على أرض الفناء نقوشاً من ظل وضوء فضي، أسمع خفق جناحي يمامة، أفزعها صفق الباب، وهو يغلق ورائي، أجد أبي يسد بقامته الباسقة الباب، وهو يحمل كيساً ورقياً، يميل نحوي، يقبّلني، آخذ يده بين يدي الاثنتين، أقبّلها، أشم عطر الورد الذي لا يغادرها، أمي ورائي تهتف بأبي:

ـ أهلاً، الحمد على سلامتك، هات عنك.
تتناول منه الكيس الورقي الكبير، وهو يقول لها:
ـ هذا الخيار لنا وللجيران، نقي الخيارات الصغيرة، أهدي الجيران منها، والباقي قطّعيه واصنعي منه المخلّل.
تخرج جدتي إلى فناء الدار، يسرع أبي إليها، يميل على يدها، يقبل يدها ورأسها، تسأله:
ـ ربطت العربية بالجنزير؟.
أبي يرد:
ـ راحت العربية والميزان، وما سلم غير كيس الخيار هذا.
ـ سلامتك أنت يابني، الله يعوضك إن شاء الله.
أمي تعلّق مستاءة:
ـ في أول يوم تأخذ الشرطة العربية والميزان، ما شافوا غير عربيتك؟!.
ـ كل العربيات معروفة عندهم، يدفع أصحابها لهم الرشاوى، أنا عربيتي جديدة، وأنا لا أعرف أي واحد من الشرطة.
وتقول أمي:
ـ ادفع لهم.
وتعلّق جدتي:
ـ الله يخزيهم، لا تدفع لهم ولا ليرة، أنا بكرة أنزل إلى السوق، أبيع الحلق في أذني، لتشتري عربية جديدة غيرها.
يعلّق أبي:
ـ إلى بكرة، يفرجها الله.

*

ليس هو اليوم الأول لعمل أبي على العربية، هكذا أمي دائماً تتكلم، وكذلك جدتي، كل منهما تكبر الأمور، أو تصغرها، هو اليوم الرابع، أو الخامس، قبل ثلاثة أيام أو أربعة اشترى أبي عربية، وبدأ يبيع عليها الخضار والفواكه، في اليوم الأول

والثاني باع بندورة، ثم باع كوسا وباذنجان، واليوم كان يبيع الخيار، قلت له: "أريد الذهاب معك"، قال:"لا يا ولدي، الزم مدرستك ودروسك، لا أريد لك هذا الشقاء، أريد نجاحك في الدراسة، حتى تصبح معلِّم مدرسة"، لو كنت معه لكنت دفعت العربية بسرعة، وركضت بها، وما سمحت للشرطة بأخذها، المدرسة مسلية، ولكن متى سأصبح بطول أبي، أو طول معلِّم الرياضة، وأنا أقصر طالب في الصف الأول، المعلمة نادتني، وكنت في المقعد الأخير، قالت لي:"أنت اقعد هنا دائماً، لا تغير موضعك"، وضعتني في المقعد الأول مقابل اللوح، وأنا لا أحب الصف الأول، المعلمة دائماً تسأل الطلاب الجالسين في مقاعد الصف الأول.

عمل أبي بالبيع على العربية في الصيف أجمل، أنا فرحت لما قال أبي لجدتي:"الحاج صالح صرفني من الفرن، صرف ثلاثة صنّاع، قال: فرنه لا يحتاج لستة صنّاع، يكفيه ثلاثة"، جدتي قالت له:" لا تحزن، الرزق على الله"، ولكن ليست هذه هي الحقيقة، أبي عانده في الرأي، فصرفه، أنا أعرف الحقيقة، هو حكى لأمي، وأمي حكت لي، قالت لي: "أبوك عنيد"، بقي أبي يومين وهو في البيت، بعدها بدأ العمل بالبيع على العربية، لم يكن مع أبي غير قليل من ثمن العربية، أمي استدانت له باقي الثمن من والدها، أبي وفَّى المبلغ بعد ثلاثة أيام، كل يوم كان يرجع، يقعد على الأرض، ويبسط ملاءة، ويفرش عليها النقود، يعدّها، بعد ثلاثة أيام قال لأمي:"خذي هذا المبلغ، رجِّعيه مع الشكر لوالدك"، العمل في البيع على العربية أفضل من العمل في الفرن، أبي ما رجع مرة من الفرن إلى البيت ومعه مثل هذه النقود الكثيرة، ولكن العمل في الفرن في الشتاء أفضل، والعمل في البيع على العربية في الصيف أجمل.

أنا كل يوم أزور أبي في الفرن، أنصرف من المدرسة، أمر به، أراه في حفرة واطئة في الأرض، وهو يقف أمام التنور، أو بيت النار، أمامه طاقة تنفتح على سطح حجري لاهب، كأنه جهنم، النار تتقد في الداخل، وهو يدفع بالأرغفة إلى بيت النار، يحملها على قطعة خشبية منبسطة، لها ذراع طويلة، يصفّ الأرغفة في رتل، رغيفاً وراء رغيف، ثم يدفع بها إلى بيت النار، هناك تصطف على السطح الحجري المتقد داخل بيت النار، وسرعان ما تنتفخ الأرغفة، تعلو، كالقباب، يتوهج لونها الذهبي، ثم يسحبها بقطعة خشبية أخرى، مسطحة أيضاً، مثل راحة الكف، لها ذراع خشبية طويلة، سمعته يقول لصانع آخر يساعده: "ناولني السيخ"، وهو يعني بالسيخ تلك القطعة الخشبية التي رأيت في الصور مثلها على جانبي الزورق، سألت المعلمة عن اسمها فقالت: "مجذاف"، هي في الماء إلى جوار الزورق مجذاف، وهي في بيت النار تحمل رقائق الأرغفة هنا السيخ.

كل مرة أرجع من المدرسة، أمر بالفرن، يعطيني أرغفة ساخنة، أحملها إلى البيت، لتناول الغداء مع أمي وجدتي. مرة رجعت من المدرسة، فرأيته يدفع إلى بيت النار برقائق من العجين، وقد بسط فوقها اللحم الناعم المفروم، وبعد قليل أخرجها من بيت النار، وضعها على طبق من قش، ودفع بها نحوي، وقال:"انتظر قليلاً حتى تبرد، ثم احملها إلى البيت، كلها أنت وأمك وجدتك"، كانت شهية جداً.

دائماً أرى العرق يتصبب من جبين أبي وهو أمام بيت النار، وإلى جواره إبريق ماء، يشرب منه بين حين وآخر. مرة دخلت إلى الفرن، لم أجد أبي أمام بيت النار، سألت عنه، قيل لي هو في الداخل، مضيت إلى الداخل، وجدت أبي يعرك

العجين بذراعيه العاريتين، وقد خلع قميصه، أحسست أن أبي قوي، في ذراعيه عضلات مفتولة.
أنا فرحت لأن أبي ترك العمل في الفرن، العمل في البيع على العربية أفضل، ليتني أعمل معه، لأدور في الشوارع والحارات.

*

أمي تقول لأبي:
ـ العشاء جاهز.
أبي يرد:
ـ الله يعطيك العافية، لا أشتهي الطعام، سأحمل الفراش إلى السطح لأنام.
جدتي تتدخل:
ـ لا يابني، لا أريد أن تنام وأنت زعلان، الله يرضي عليك، خلينا نسهر، العشاء أذّن من عشر دقائق، أنا الآن صليت، الجو صيف، نعم، ولكن الليل بارد، أخاف عليك.
أمي تقول له:
ـ ما رأيك في زيارة أخي محمود؟، بيته قريب، نسهر عنده.
أبي يرد:
ـ لا أشتهي السهر، لا في البيت، ولا عند أحد.
أمي تقول له:
ـ أصلحك الله، أنت غلطت، هو المعلم، وهو صاحب الفرن، والخبز خبزه، غلطت، كيف تقول له: نقلل الخميرة، ونضيف الحليب للعجين، طبيعي، غضب، وفصلك عن العمل، لا يريد الخسارة، الحليب أغلى من الخميرة.
أبي يرد:
ـ الخبز هو خبز الناس، وما هو خبزه، والفرن لكل الناس، والخبز مع الحليب أطيب، وتقليل الخميرة يحمي العجين،

ويظل الخبز يومين وثلاثة وكأنه خارج للتو من الفرن، ما صدق لما قال الفرن لا يحتاج إلى ستة صناع، الفرن يحتاج إلى عشرة، بكرة يندم، ويطلب مني العودة للفرن.

*

أبي يحمل فراشه، يصعد السلم الخشبي، أمي تلحق به تحمل الوسادة واللحاف، ثم تهبط وهي مكتئبة.

جدتي تقول لها:

ـ لا تنزلي، خليك فوق، لا تتركيه وحده.

*

أنا أحب النوم فوق السطح، تهب النسمات هادئة ناعمة، وأسمع رفرفة أجنحة اليمامات، وطيران بعض العصافير، القطة اللعينة تتسلق الشجرة في الليل، تصطاد الفراخ الصغيرة والأمهات نائمة.

ضوء الفجر يزعجني عند الصباح، أستيقظ باكراً على زقزقة العصافير، جدتي لا تريد لي ولا لأبي النوم فوق السطح.

*

ويقرع الباب، أسرع إلى فتحه، وإذا الحاج صالح بالباب.

أعرفه، هو صاحب الفرن، قصير، بدين، رأسه مثل كرة السلة، أصلع، له شاربان أسودان لا أحبهما، مستقيمان، كأنهما مسطرة الهندسة.

ـ أبوك في البيت؟

ـ نعم.

ـ ناد والدك، بسرعة.

تبرز جدتي، وغطاء الصلاة الأبيض فوق رأسها، يبادرها الحاج صالح.

ـ يا أم حسين سامحيني، أنا بحاجة لولدك حسين، العجين في المعجن اختمر، أخشى يحمض، والصانع مريض، ما عندي

أحد غير ابنك حسين ينقذني، لا يجوز، الناس مع الفجر محتاجة للخبز، قولي له: أجرة اليوم بيومين، وكيلو حليب له وللعيلة، وكيلو حليب للعجين.
أسمع صوت أبي وهو يهبط على السلم:
ـ حاضر، تكرم ياحاج صالح، أنا بخدمتك.
أبي يسرع نحو الباب.
أمي تستوقفه:
ـ ولكن هو فصلك من العمل، وتركك سبعة أيام، وأنت تعبان، ومن غير عشاء.
أبي يرد:
ـ لا يمكن ترك الناس من غير خبز.
جدتي تعلق:
ـ الله يرضى عليك يا بني.
أبي يرحب بالحاج صالح:
ـ أهلاً بالحاج صالح، أنا مثل ابنك، لا أجرة يوم، ولا يومين، ولا أريد الحليب لي ولا للعيلة، يكفيني خبز يوم واحد، لي وللعيال، حتى ولو من غير إدام، لكن كيلو الحليب للعجين نعم، هذا ضروري، ولا تنس حميد وعدنان، الفرن من غيرنا لايمكن يشتغل.
ويرد الحاج صالح:
ـ أمرك، بكرة يرجع عدنان وحميد للفرن.
أبي يخرج ليمضي مع الحاج صالح.

*

أتجاوز الممر، أصل إلى المطبخ، الأولاد وأمهم مستغرقون في الصخب. أتنحنح، أسعل، تتنبه إليّ زوجتي والأولاد. تسرع إلي الزوجة.

ـ أهلاً، الحمد لله على سلامتك، سامحنا كان يجب انتظارك، ولكن الأولاد جاعوا، وما عادوا يستطيعون الصبر، بعدما رأوا الطعام.

ـ بالهناء والعافية.

الأولاد يغادرون المطبخ، ينصرف كل منهم إلى غرفته، يغلق عليه الباب.

*

ولكن لماذا هذه الجلبة كلها، ولماذا هذا الضجيج، كلكم يعرف موعد القطار، يصل في العاشرة إلى المحطة، تمنيت لو كان سامح في انتظاري بالسيارة، السيارة واقفة أمام العمارة، ولا أحد يأتي بها لانتظاري، بصعوبة استطعت الحصول على سيارة أجرة، الزحام شديد. سامح سنة رابعة هندسة، أمل سنة ثالثة طب، سمير سنة أولى آداب، منير ثالث ثانوي. لا أحد منهم يقول:"أهلاً بابا"، لا أحد يهمس:"الحمد لله على السلامة"، ولكن، بعضهم مع بعضهم الآخر يثرثرون ويلغطون ويعلو صخبهم.

*

ـ بابا، أريد قسط الدورة، تأخرت ثلاثة أيام عن الدفع.

*

أعرف هذا جيداً، أنا فقط مورد للمال، مصرف تجاري، كنت أقعد معهم ساعات أعطيهم دروساً في الرياضيات واللغة الإنكليزية والعربية، ولا أحد منهم يقعد معي الآن ربع الساعة، لا أريد منهم أي شيء، ليعيشوا حياتهم، هذا من حقهم، أنا جهدت وتعبت وناضلت لشراء دار واسعة يكون فيها لكل منهم غرفته، ولكن من حقنا جميعاً أن نجتمع معاً على مائدة العشاء، عرفت هذا، لم يعد جديداً، هذه ليست أول مرة أصل فأجدهم يتناولون طعام العشاء، أو يكونون قد

تناولوه قبل بضع دقائق، هم يعرفون موعد عودتي، في العاشرة والربع، أو العاشرة والنصف أكون في البيت، القطار يصل في العاشرة، تمنيت لو أن أحدهم مرة واحدة انتظرني في السيارة ليرجعني إلى البيت، بدلاً من أخذي سيارة أجرة.

*

زوجتي تجمع كسر الخبز وبقاياه، ترميها في سلة القمامة، أقول لها:

- لا يجوز رمي الخبز، وراءه تعب.

ـ لاتعب، ولا أي شيء، التعب كان في زمان جدي وجدك، الطحين الآن كله مستورد، وآلات تعجن وترق وتخبز، وأنت تذكر المطاعم، ترمي من الخبز ما يكفي الدنيا كلها.

وتلتفت إلي لتغير من نبرة صوتها:

- هل أجهز لك المائدة؟

*

الأمر لا يحتاج إلى سؤال، أنا متعب وجائع، ولكن، لن أتناول العشاء، وهل يمكن أن أتناوله هكذا وحدي؟ هل أدعو الجيران ليتناولوا العشاء معي؟ كم من مرة دعيت إلى عشاء أو غداء واعتذرت، لأنني لا أريد تناول الطعام وحدي من دون زوجتي وأولادي، لا أقبل دعوة إلا إذا كانت لي وللزوجة والأولاد، إلا بالطبع الدعوات الرسمية ودعوات العمل.

*

- سأمضي إلى غرفتي في الداخل، أنا متعب، لا أشتهي الطعام.

ـ أوه، نسيت، الساعة الآن العاشرة، بعد نصف ساعة يبدأ اجتماع مجلس الحي في بيت قاسم، وأنت مندوب عمارتنا، حضورك ضروري، الحفرة أمام عمارتنا نعاني منها، وعمود النور في نهاية الشارع صدمته سيارة، وعامل التنظيفات يغيب يومين أو ثلاثة في الأسبوع.

أدير ظهري وأمضي إلى الداخل.

*

ليتني أحمل فراشي والوسادة واللحاف لأنام على السطح، ولكن أنا في شقة في بناء طابقي، والسطح يغص بالمداخن وبراميل الوقود وخزانات المياه وبقايا كراس وصناديق محطمة، ونحن في فصل الشتاء، لا بد من أن أدفن نفسي في الداخل في العمق.

*

زوجتي تفتح الباب وتدخل حاملة فنجان قهوة.

ـ اشرب قهوتك، لا يمكن أن تنام في العاشرة، ما رأيك في زيارة أخي عماد، والسهر عنده؟

ـ أنا متعب، السفر أرهقني.

ـ هذه مسؤوليتك، أنت المخطئ، لو لم تصلح المضخة، ووافقت على شراء قطع الغيار، كنت صرت الآن أنت المدير.

*

حتى أنت يا ليلى؟! هل أصبح الصدق والإخلاص جريمة يعاقبنا عليها أقرب الناس منا؟ هل لأني صلحت المضخات، كلها، وصنعت قطع الغيار بنفسي، أنفى إلى بعد مئتي كيلو متر عن مقر عملي، لأسافر يومياً، وأصبح مجرد مراقب في غرفة صغيرة ولا عمل لي سوى السفر، وأنا الذي كنت المشرف على عشرة مهندسين، صدقت أيتها الزوجة الواقعية، لو أنني لم أصنع قطع الغيار بنفسي، لكان المدير اشترى خمسين مضخة، وربح من ورائها، أو اشترى مئات قطع الغيار، ما كنت أتوقع أن يصبح بين عشية وضحاها المدير العام لمؤسسة المياه، وفي اليوم التالي مباشرة يُصدِر قراراً بنقلي، كنت أتوقع أن يُصدِر قراراً بتعييني مديراً للمحطة، ولكنه أصدر قراراً بتعيين أصغر مهندس، لم يمض على عمله في

المحطة سوى عامين، كان يجب أن أتاجر بالماء الذي يشربه الناس، مثله، ليرضى عني، ولكن: لا، لن يحلم بذلك.

*

سأظل أسافر كل يوم، رحلة القطار في الإياب ممتعة، عامل التذاكر أصبح صديقي، عرّفني على السائق، أدخل إلى غرفة القيادة، أقف إلى جانب السائق، عرف أني مهندس ميكانيك، أخذ يحدثني عن آلية العمل في القاطرة، وعن فن القيادة، حدثته عن تصنيعي قطع الغيار بنفسي، بدلاً من استيرادها.
رآني المدير ببدلة العمل الزرقاء أمام المخرطة، وحولي العمال، عرف أني أصنع قطعة غيار، استدعاني إلى مكتبه، وقال: "مكانك في مكتبك، لا بين العمال، أنت شوهت صورة المهندس".

*

سفري بالقطار يومياً، فرصة للخروج من المدينة، والنزهة، ولكن ما يؤلمني أنني أمضي ساعات الدوام من غير عمل، لا عمل لي هناك في محطة تغذية صغيرة، ليس فيها سوى مضخة واحدة، والمشكلة أنها لا تتعطل، أتمنى أن تتعطل، كي أقوم بتصليحها فوراً. والمشكلة طبيعة الدوام، من الثانية عشرة حتى الثامنة مساء، يضيع النهار كله من غير عمل، أسافر في التاسعة والنصف بالحافلة صباحاً، وأرجع في العاشرة بالقطار مساء.

*

أحتسي فنجان القهوة، أدفن رأسي في الفراش، تحت الوسادة. النوم يجافيني، أنهض، أفتح الحاسب، أتصل بالشبكة، أبحث عن مواقع للعمل في الخارج.

زائرة

أرجع وزوجتي من سهرة صيفية، أفتح باب غرفتنا، أدخل، أحس هسيس حركة، زوجتي تذعر، تقف، باب الشرفة مفتوح، أدرك على الفور أن كائناً ما قد دخل، حتماً ليس بلص، جذبه الضوء الخافت، في ليلة صيفية حارة، لعله فراشة، أو جرادة، أو صرصور له جناحان طار بهما، زوجتي تضيء المصباح، على الفراش حمامة بيضاء، بهدوء أمشي نحوها، أمسك بها، زوجتي تصيح:

ـ لا، لا تلوث يديك.

ثم تهمس:

ـ يا للماكرة، ما وجدت غير الفراش لتهبط عليه، وفي موضع نومك أنت بالضبط؟؟!.

أحمل الحمامة بكلتا يدي، أمسك عنقها الناعم بالسبابة والإبهام، أتأمل جيدها الناعم، ريشات ناعمة في عنقها مفتولة كالعقد، عيناها تأتلقان، هي بيضاء كالثلج، أطراف جناحيها مكحولة بسواد رشيق، في طرف ذيلها سواد ناعم، كلحن مختلف في نغم هادئ، تتلفت يمنة ويسرة مزهوة بجمالها، أنادي الأولاد.

مجد يأخذها بين يديه، يقبل عنقها، يضمها إلى صدره، أمل تود الإمساك بها، ولكنها تكتفي بمسح رأسها بسبابتها، تخاف، تذعر لدى التفاتة رأسها، تخشى منقارها العقيقي.

أقول لها:

ـ خذيها بين يديك، لا تخافي، هي لطيفة مثلك.

وتصيح زوجتي:

ـ أرجوك، أطلقها من الشرفة، لا نريدها في البيت.

أمل تعلق:

ـ لا، لا، لا ترموها من النافذة، أخشى تأكلها قطة الجيران، اتركوها عندنا.

مجد يستأذنني:

ـ هل تسمح لي بوضعها في شرفة غرفتي؟!

ـ هي لك، خذها، يامجد، ولكن لا تنس، ضع لها الماء، وفتات الخبز، ومن الصباح الباكر اشتر لها طعامها الخاص بها، هو ذرة بيضاء.

زوجتي تلح علينا، تريد إطلاقها، توصينا بغسل أيدينا بالماء والصابون، مؤكدة ضرورة عدم بقائها في الشقة، حتى ولا في الشرفة، تخشى من الأمراض، تؤكد أن في ريشها أبواغاً تتطاير في الهواء، وتعشش في الصدر.

في الصباح نجتمع إلى مائدة الإفطار، أفتقد مجد، أسأل عنه، أمه تقول:

ـ هو في غرفته لا يغادرها.

أرد:

ـ هذا من حقه، فهو مشغول بالحمامة لا يريد تركها.

أمل تعلق:

ـ هو حزين، لا يريد ترك الغرفة، ولا تناول الإفطار.

وأسأل:

ـ ولماذا؟

أمل تجيب:

ـ طارت الحمامة، استيقظ في الصباح فلم يجدها.

أعلق:

ـ هذا جيد، رجعت إلى صاحبها.

زوجتي تضيف:

ـ تخلصنا منها، لا بد الآن من غسل الشرفة وتنظيفها بالماء والصابون، لا نريد الأمراض ولا الأوبئة، لا أعرف كيف يربي الناس الحمام والقطط في بيوتهم؟ كيف يعيشون معها؟

أمل تتكلم:

ـ اختارت لنفسها الحرية.

زوجتي تعلق:

ـ هي وفية لصاحبها، عادت إليه، كما قال أبوك.

في المساء أرجع إلى البيت فأجد في غرفة الجلوس ثلاث لوحات على الجدار للحمامة نفسها، صورة من أمام، صدرها شامخ، منقارها كالعقيق، رأسها دقيق لطيف، صورة من جانب، جيدها أتلع، عينها تأتلق، منقارها لطيف، صورة كلية تقف بكامل حضورها، كأنها عروس في ليل زفافها. أسأل:

ـ من التقط هذه الصور؟

يدخل مجد ليهتف:

ـ أنا التقطت صور الحمامة ليلة أمس.

أسأله:

ـ وهل استأذنت أمك؟ أنت تعرف، هي لا تريد وجود الحمام في الشقة.

التين الجاف

لا أنسى يوم كنت في السابعة. مع إشراقة الشمس، تقف الحافلة، نهبط منها، أنا وأمي وأبي وإخوتي وسائر الركاب، أسرع إلى الكرم، أركض، أعدو، أمضي إلى أقرب شجرة تين، أقطف تينة دانية، العسل يقطر منها، باردة، لذيذة، تذوب في فمي، أبحث عن شجرة أخرى، أتسلقها، أمضي إلى أبعد غصن، أقطف تينة أخرى، الشمس بدأت تعلو، شعاعاتها الذهبية تدفئني في لذعة الصباح الباكر، أنسى الأم والأب والإخوة والأخوات، لا شيء سوى التين والشمس والفضاء الرحب، وأنا أسترخي في حضن الشجرة.

اليوم، وأنا في السبعين. وحدي في غرفتي المعتمة الضيقة البعيدة المعزولة في أقصى المنزل، أقعد في فراشي القديم، ممدداً ساقي المتعبتين المتورمتين، في ليلة شتوية، ألتف بعباءتي العتيقة المهترئة، الزمهرير يأكلني، أنتظر حفيدي حتى يرجع من المدرسة لعلي أتسلى معه، إلى جواري جرعة ماء، وبضع تينات جافة يابسة.

آنيةٌ من صلصال

أحمل بيدي الاثنتين عجينة الصلصال، أرفعها إلى أعلى، أقبّلها، أعجنها بدمي ودموعي وعمري وكلماتي، أغمس فيها أصابعي، أضعها على القرص الدوار، أحتويها بجسدي، بكياني كله، قدماي في الأسفل تدفعان القرص، يداي في الأعلى تكوّنان العجينة اللينة، تدخل أصابعي فيها بلطف، تنغمس فيها، تلفها، تمنحها الدفء، تعيش في لدونتها، تمنحها النبض والحياة، أشكّل العجينة، أتشكل بها، أسكب فيها من عيني، من قلبي، من نبضي، من روحي، أكلمها، أحاورها، أهمس لها، أقول لها:"كوني"، أنفث فيها من كلماتي، أنفخ فيها من روحي، وهي تدور وتدور، مثل الأرض، مثل الأعمار، مثل الأفلاك، وأنا أحركها، بأطرافي كلها أحركها، بعشر من الأصابع من تحت وعشر من فوق، فإذا هي تتشكل بين يديّ الاثنتين عجينة لينة لدنة ناعمة، تنفحني طواعيتها، تمنحني لدونتها، تستوي آنية من صلصال، بخيط حريري ناعم أقطعها من القاعدة عن القرص، أحملها بيدي إلى أعلى، أحس بروعتها، أشعر بزهو، أنا حقيقة خزاف، ثم أضع فيها زيت عمري.

يجلس في مقعده إلى جواري، يلمح في عينيَّ الدموع، يسألني:"هذه أول مرة تركب فيها طائرة؟"، أجيبه:"هذه أول مرة أودع فيها أمي، وأغادر الوطن"، يضحك، يضحك كثيراً، يقهقه، ثم يعلّق:"غداً تألف، أنا مللت من الوداع واللقاء، ما عدت أودع الأم ولا الزوجة ولا الأولاد، لم يبق للسفر عندي معنى، لا بد من سفرتين أو ثلاث سفرات على الأقل في كل شهر، وربما سافرت أربع مرات في الشهر الواحد، حقيبة سفري جاهزة دائماً".

وتنطلق الطائرة على مَدْرَج الإقلاع بسرعة كبيرة، أتشبث بمسند المقعد أمامي، أتمتم ببضع آيات، يلتفت نحوي ليتكلم:"الناس يتمسكون بالمقعد، من الخوف، أصبح الإقلاع عندي والهبوط أسهل من إيقاف سيارة إلى جانب الرصيف"، يصمت، ثم يسأل:" لصالح أي وزارة أنت مسافر؟ وفي أي مهمة؟!"، أجيبه:"أنا مسافر للعمل"، ويسأل:"ولماذا حجزت في الدرجة الأولى؟ هي مُكلفة"، أجيبه:"أنا مضطر، ليس هناك مقاعد، موظف الخطوط خيرني بين الحجز لي في الدرجة الأولى، ولزوجتي ولأولادي الاثنين في الدرجة السياحية، أو الانتظار أسبوعين، يجب الالتحاق بالعمل بعد غد، ليس أمامي حل آخر"، ويسألني:"وما عملك؟" أجيبه:"معلم في مدرسة ابتدائية".

ويعلو صوت القبطان في المكبر وهو يعلن:" أنا القبطان خالد، أرحب بالمسافرين على متن رحلتنا، ويسرني أن أدعو إلى قمرة القيادة ضيف رحلتنا ممثل الوزارة السيد عماد". ويلتفت

نحوي الشاب الذي إلى جواري، يستأذنني، ثم يمضي إلى قمرة القيادة.

*

بعد خمسة أيام، نصعد سلم الطائرة، تدخل أمامي زوجتي وأولادي، نمر بالدرجة الأولى، الشاب الذي اسمه عماد هو نفسه في المقعد الأول في الدرجة الأولى، يهتف سائلاً:"هذا أنت؟ هل انتهت مهمتك؟"، أجيبه: "لم أوقّع العقد، ولم أباشر العمل، الجهة التي دعتني أخلّت بالشروط، أنا كما ترى، أتحمل نفقات السفر، وأخسر، ولكن يكفي أني أعود إلى الوطن".

انعطف في الشارع الفرعي، سألته زوجته وهي إلى جواره في السيارة:
- إلى أين ستذهب؟
- سأملأ الخزان بالوقود.
- مررنا بمحطة الوقود، لماذا لم تقف فيها؟
- لا أحب ملء الخزان فيها.
- ولكنها الأقرب إلى بيتنا، وهي نظيفة، وقودها جيد، سمعتها حسنة.
- هذا قبل شهر.
- أنا أعرفها، أرضها نظيفة، ولا بقعة زيت فيها، وعمالها يرتدون ثياباً خاصة، وفي أيديهم قفازات، وفيها مقصف واستراحة، وآلة تقدم القهوة، كم مرة ملأت فيها السيارة بالوقود، وكنت معك، وكان العامل يقدم لي فنجان قهوة.
لم يجب بشيء، ظل منطلقاً بالسيارة، أصبح خارج المدينة.
- كنت دائماً تثني على وقودها النظيف غير المغشوش، وتمدح صاحبها الحاج صالح، وتقول لي: هو رجل غني مقتدر، كل محطات الوقود في المدينة ملكه، هو يديرها، والرجل قد آتاه الله من فضله، ليس بحاجة إلى الغش.
- صدقت، هذا ليس كلامي، هذا كلام الناس، يحبُّه كل الناس، سيرته مثل المسك.
يدير المسجل، ينداح صوت فيروز:
هل تستعاد أيامنا بالخليج ولياليا
أويستفاد من النسيم الأريج مسك دارينا
تسأله زوجته وهي تخفض صوت المسجّل:

ـ لا أظن أننا سنجد محطة وقود قريبة، غادرنا المدينة، وبدأنا ندخل في الريف.
ـ هناك محطة قريبة، بدأتُ منذ شهر أملأ الوقود منها.
ـ تسافر إلى الريف لتملأ الوقود، ومحطات الحاج صالح تملأ المدينة كلها، وعلى بعد خمسمئة متر من بيتنا أجمل محطة، بل أحدث محطة.
ـ قلت لك: أنت لا تعرفين.
ـ أنا أسمع عن الحاج صالح، رجل تقي وحضاري، يحج كل عام، وبنى أكبر مسجد في الحي الغربي، هو طور المدينة، جدّد فيها محطات الوقود، جعلها حديثة، ليت الحاج صالح يشتري محطات الوقود في الريف كله، لتصبح نظيفة مثل محطات المدينة.
ـ أنا كنت مثلك أسمع عنه هذا الكلام، وكنت أعجب، كنت أتمنى لو يتسلم وزارة من الوزارات، والآن أنصح لك، لا تتمني مثل هذه الأمنية، أرجوك، بل تمني أن يتخلى عن محطات المدينة لتصبح مثل محطات الريف.
ـ محطات الريف ليست في نظافة محطات الحاج صالح.
يتكلم وهو يشد يديه على مقود السيارة:
ـ نعم، هذا من الخارج، فالمدخل إليها طيني، وأرضها ملوثة ببقع الزيت والوقود، وليس فيها استراحة ولا مقصف، ولا آلة قهوة حديثة، وليس لها مظلة، فهي مكشوفة، وعمالها ليس في أيديهم قفازات، وليس لهم ثياب خاصة، ثيابهم متسخة بالزيت، وأيديهم ملوثة بالشحم والوقود، حتى النقود بين أيديهم ملوثة بالوقود، ولكنها ليست مزورة، هي ليست مثل محطات الحاج صالح، لا من الداخل ولا من الخارج.
زوجته تغلق المسجل، وتسأله:
ـ كيف هذا؟ لم أفهم.

ـ قبل شهر فقط عرفت كل شيء، الوقود في المحطة القريبة من بيتنا مغشوش بالرصاص، بوقود آخر، ليس بالنقاوة المطلوبة، حتى العدادات عنده غير دقيقة، والعمال يدسُّون للزبائن الغرباء بين الأوراق النقدية أوراقاً مزورة، وهم يبيعون المخدرات، بأيديهم النظيفة جداً.
ـ هذا غير معقول، ولا يصدق.
ـ هذه هي الحقيقة، وهناك ما هو أسوأ، أنت لا تعرفين، يمكن في الداخل ليلاً شراء أي قطعة سلاح، ومن الممكن لأي شاب أن يدخل إلى المقصف ليشرب فنجان قهوة، ثم يخرج وبصحبته إحدى بنات الليل.
ـ أنت تبالغ،أنا لم أسمع بهذا، ولا أصدق.
ـ وأنا لم أسمع به من قبل، وحين سمعته لم أصدق، ثم صدقت.
ـ وهل يعلم الحاج صالح بهذا؟ لعله لا يعرف؟!
ـ تعرفين قول الشاعر: إذا كنت تدري فتلك مصيبة.....هل يصدق أحد أن هذا كله يجري في محطاته كلها وهو لا يدري؟ كل شيء بعلمه، هناك عشر كاميرات في كل محطة تصور كل شيء، ليتر وقود واحد لا يخفى عليه، عماله كلهم جواسيس بعضهم على بعضهم الآخر، كل شيء عنده بحساب، لا تخفى عليه خافية، لا كبيرة ولا صغيرة.
ـ على كل حال، تعبئة الوقود من محطة نظيفة خير من تعبئته من محطة أرضها طينية، وعمالها كما قلت أيديهم ملوثة بالشحم والزيت.
ـ سأحدثك عن صالح، كلنا نتحمل المسؤولية، أنا وأنت وأبي وجدي وجدك، كلنا صنعناه، أنا لا أعرف كيف حدث هذا، أحياناً ننسى، ثم فجأة نتذكر، ولكن بعد فوات الأوان، صالح في الأصل مجرد أجير في محطة في طرف المدينة، أبوه أجير

من قبله، يقف عند المضخة يملأ الوقود للسيارات، ما عدت أتذكر اسمها، قبل ثلاثين سنة، الاسم غير مهم، الاسم كله تغير عدة مرات، المهم أن الأجير الأب طلب من صاحب المحطة أن يعمل ابنه صالح معه في المحطة، ابنه دون العشرين، وحدث أن الأب احترق، مات، حدث انفجار في إحدى المضخات، واحترق الأب، صالح كان في العشرين من عمره، لم يمض على عمله في المحطة غير بضع سنين، صاحب المحطة رعى الولد صالح، لنقُلْ أعطاه تعويضات حتى لا يرفع دعوى عليه، واعتبر الحريق قضاء وقدراً، الانفجار حصل في مضخة لم يكن أبو صالح يعمل عليها، كان بالقرب منها، المهم في الأمر، صالح بدأ يلعب لعبته، الأمر لا يصدق، شريف، نزيه، لا يغش، كسب ثقة صاحب المحطة، أدخله شريكاً معه، ثم سلمه المحطة، ليفتتح المعلم محطة ثانية، بدأ صالح بتحسين المحطة، نظافة، عناية، دعايات وهدايا، فنجان قهوة مجاناً مع كل تعبئة كاملة للخزان، صندوق مناديل ورقية هدية، صندوق معسّل، ثم اغسل سيارتك مجاناً مع كل تعبئة خزان، افتتح مقصفاً فوق المحطة، صبايا حسان يعملن في المقصف لجلب الزبائن، كل الناس بدؤوا يملؤون خزانات سياراتهم عنده، أقبل عليه الناس من كل حدب وصوب، كما يقال، اشترى محطة ثانية، ثالثة، الأسلوب نفسه، تطور المشروع، تضخم، في كل مكان: محطة صالح هي المطلوبة، اسمه نفسه أصبح له وقع خاص في النفوس، بدأ يحج كل عام، بنى مسجداً كبيراً في أرقى حي في المدينة، خيمة رمضانية للفقراء، يوزع المازوت في الشتاء على الأسر الفقيرة مجاناً، كل محطات الوقود في المدينة أصبحت ملكه، كلنا أحببناه، مازوت صالح، بنزين صالح، اسم صالح أصبح علامة مسجلة، ولا يمكن أن تتصوري مدى ذكائه، أسس

شركات ومعامل لتعبئة زيوت الغيار باسم صالح، وتعبئة مانع التجمد في الشتاء باسم صالح، عبأ زجاجات ماء صغيرة باسم ماء صالح، يوزعها هدية مع كل تعبئة خزان وقود، غداً سنجد علبة سكائر باسم صالح، بل سنجد زجاجا بهواء اسمه هواء صالح، قلت لك، نحن صنعناه، بذكائه هو، وبغبائنا نحن، أصبح عندنا ظاهرة اسمها: صالح.

يتجاوز سيارة شاحنة مثقلة بالحمولة تسير أمامه، زوجته تعلق:

ـ لا أوافقك على اتهام نفسك والناس، أنت ألقيت المسؤولية على الناس، صالح هو الذي استغل حاجة الناس، استعمل أسلوب الدعاية، وابتلع كل المحطات، مثله مثل الشركات الرأسمالية، دعاية تجارية، والشركة الكبرى تبتلع سائر الشركات، أنا أتوقع أن يوسع مجال عمله، وأن تزداد أمواله أكثر وأكثر، ولكن لا أعرف ماذا سيعمل بها؟!

ـ أمواله كلها في المصارف الأوربية، وما عنده ولد يرثه، تزوج ثلاث مرات، ولم ينجب.

زوجته تعلق:

ـ أنا لو كان بيدي حُكْم العالم لكنت....

يقاطعها، وهو يشد قبضته على المقود:

ـ لا تحلمي، كثير مثلك قالوا لو كنا، الحلم لا ينفع.

وتهبط به الطريق، يطل على المحطة، زوجته تهتف:

ـ يا إلهي، هذه محطة حديثة، هي أجمل من كل محطات المدينة، لها طريق خاصة معبدة، وتغطيها مظلة كبيرة، وأرضها غير ملوثة، والعمال يرتدون ثياباً خاصة، كأنهم زهرات ربيعية، وفيها مقصف، سنشرب القهوة، هناك باقات من الورد في مدخلها، كأنها افتتحت أمس.

يقف بسيارته قبل المنعطف المؤدي إلى المحطة، لا يدخل فيه، ينظر إلى المحطة، يقول لزوجته:

- اقرئي اللافتة: أهلاً بكم في المحطة ٢٢٢ للحاج صالح.

ينطلق بسيارته، متجاوزاً المحطة.

يقترب من شاحنة، يسير بجوارها، يطلق بوق سيارته، يشير إلى سائقها، يسأله:

- أنت تعرف الطريق، هل توجد أمامنا محطة قريبة؟.

سائق الشاحنة يرد عليه بصوت مرتفع:

- لا تتعب نفسك، كل المحطات أصبحت ملك الحاج صالح، كل الوقود واحد، كل المحطات واحدة.

يغادر قاعة المكتبة، اهتز الجوال، فغادر المكتبة، في البهو أخذ يرد على الهاتف.
ـ رؤوف، أريد الاستعانة بذوقك، أنت مختص في الألوان، ستذهب معي لشراء طقم العرس، أنا هنا في الشارع، أمام باب الحرم الجامعي، بانتظارك، لا تتأخر.
لا بأس، لن أرد طلبه، وإن كان منذ شهر لم يتصل بي، له العذر، شَغَلَتْه الخطيبة، وهي فرصة أستريح فيها، وأتسلى معه بالتجوال في المدينة، من الساعة التاسعة صباحاً وأنا في المكتبة، الساعة الآن الثالثة، لا بأس فلتكن ساعة استراحة، ليس من عادتي أن أرد طلب صديق.
أغلق المراجع، تركها على الطاولة، أغلق الحاسوب، حمله وغادر المكتبة. على الرصيف، أمام باب الحرم الجامعي وجده بانتظاره.

*

ما هذه البيجاما الزرقاء التي يرتديها؟ وكيف يأتي إلى الجامعة بلباس الرياضة؟ وبحذاء رياضي غليظ؟ لحيته غير حلقة، وشعره مدهون بمادة لامعة ومرفوع من الجوانب إلى أعلى، لم يبق إلا أن يلونه بالأحمر ليصبح مثل عرف الديك، وبين يديه نظارة سوداء، لا أعرف لماذا لا يضعها على عينيه، وهو واقف في الشمس.

*

ـ أهلاً سامح.
ـ أهلاً رؤوف.

ـ كيف هو بحثك؟
ـ ما أزال أعمل فيه.
ـ ومتى المناقشة؟
ـ بعيدة، ما أزال في السنة الثانية، أمامي أكثر من سنتين، هذا، ما لم يظهر فجأة ما يعيقني عن البحث، ويجعلني أتخلى عن الدكتوراه نهائياً.
ـ الطريق إلى الدكتوراه حقيقة طويلة، أنا استرحت من الدراسة، اكتفيت بالإجازة وباشرت العمل، اعذرني قطعت عليك سلسلة أفكارك، ولكن لا بد من الأخذ برأيك، أنت صاحب ذوق، وأنت مختص، يجب أن نراجعك في كل ما يتعلق بالألوان، غداً ستعتمد عليك المعامل والشركات، وسأعتمد عليك أنا.

*

ما كنت أعرفه ثرثاراً، يريد القول إنه اختصر الطريق إلى الحياة، وهاهو على وشك الزواج، أما أنا فلا أعرف متى يمكن أن أتزوج، لا بد من نيل الدكتوراه أولاً، ثم البحث عن عمل، ثم شراء بيت، عمل هو في معمل أبيه فور تخرجه، بل كان يعمل فيه من قبل، أبوه اشترى له شقة فخمة، لم تمض ثلاث سنوات حتى تخلى له أبوه عن المعمل، وأصبح من كبار رجال الأعمال، ليس بالسيِّئ، يستحق هذا النجاح، فيه شيء من الوفاء، لا ينسى زيارتي بعد حين وآخر، أو دعوتي إلى مزرعته يوم العطلة، ولكن لا يخلو من غرور، هو جزء من طبيعته، منذ أن كنا في السنة الأولى.

*

ـ وأنا واقف بانتظارك، أمام باب الجامعة أحسست بالغربة، رأيت الجامعة كلها مجرد طلل، أين أيام زمان؟ حتى صبايا اليوم لا يشبهن زميلاتنا يوم كنا في الجامعة، كل شيء تغير،

لا أعرف كيف تصبر أنت على الاستمرار في الدراسة ثلاث سنين بعد التخرج، وأنت ما تزال تقرأ؟ أنا ما عدت أستطيع قراءة صفحة واحدة، أستغرب كيف ما مللت، أنا أتمنى أن تعمل في التجارة الحرة، وتسافر لترى العالم.

*

سارا معاً على الرصيف.

ـ اعذرني، سنسير بضع خطوات، ما وجدت أي موضع لسيارتي أمام باب الجامعة، ما هذا الازدحام؟ وضعتها هناك، على بعد بضعة أمتار.

سيارة كبيرة عالية، سوداء، من سيارات الدفع الرباعي.

ـ ولكن أنت وضعتها في الرتل الثاني، موازية للسيارات، كأنها تقف في وسط الشارع، أما خشيت من سيارة عابرة تصدمها، أو يمر شرطي مرور فيسجل بحقها مخالفة؟.

ـ لا يجرؤ أي سائق على الاقتراب من سيارة ثمنها خمسة عشر مليون ليرة، فكيف سيصدمها، هو يتحاشاها، ويبتعد عنها، وانظر إلى لوحتها، أنت لا تعرف، هذه لوحة مميزة، إذا رآها شرطي المرور فلا يستطيع كتابة مخالفة بحقها، بل سيقف إلى جوارها ليحرسها، أنت تعرف أبي وعلاقاته الواسعة والعريضة، وهو يحب كل ما هو مميز ومختلف، وأنا لست أقل منه في حب المميز والمختلف، صدِّقني يمكن ترك سيارتي مفتوحة الأبواب، لا يستطيع أحد سرقتها، هي لا تعمل إلا بالبصمة.

يتخذ موضعه وراء المقود، يضع نظارته على عينيه، يلصق باطن إبهامه في موضع مفتاح التشغيل، ثم ينطلق.

*

ـ سنذهب إلى مول جديد، خارج المدينة، بضاعته كلها مستودرة، هو قطعة من أوربة، يمكن أن تجد فيه كل ما

تحتاج إليه، يمكن أن تأتي بشاحنة وتملأها بكل ما يلزم تأثيث بيت جديد، طبعاً ما عدا العروس، عليك أن تحصل عليها أولاً، ثم بعد ذلك تأتي بها إلى هنا، فتختار كل شيء، إلا طقم العرس، عليك أن تختاره أنت بنفسك، أو بمشاورة صديق صاحب ذوق واختصاص في الألوان مثلك، ما رأيك؟.

*

المول؟ هو أفخم من المكتبة وأعظم، بل أفخم من الجامعة كلها وأكبر، هندسته أجمل، مساحته أوسع، أثاثه أرقى، طرازه أحدث، الأضواء فيه بألوانها المختلفة موزعة بشكل لايتوقع، حتى الثياب والألبسة والأحذية والمعاطف والحقائب، لا أعرف على أي مدرسة فنية اعتمد المصمم والمهندس؟ هل هي الوحشية أو الانطباعية أو التكعيبية أو السريالية؟ لا أعرف هل أنا في غابات إفريقية أم صحارى أستراليا أو في جبال الصين أو حدائق اليابان؟ يجب أن أحضر الحاسوب والمراجع لأكتب هنا رسالة الدكتوراه، هنا يمكن أن أعرف الألوان على حقيقتها، كما هي في الواقع.

ما هذا؟ سلالم كهربائية، مصاعد زجاجية، شلالات من الأضواء، أشجار طبيعية، أحواض ماء واسعة، تسبح فيها الدلافين، برك أخرى، نوافير تقذف الأمواه إلى أعلى أمتاراً أمتاراً، تتراقص مع الموسيقا والأضواء، ملاعب أطفال، مسطَّح جليدي للتزلج، تكييف بارد، موسيقا هادئة، واجهات زجاجية فخمة.

أين أنا؟ من أنا؟! أنا هنا ضعت.

الأمر في الحقيقة لا يحتاج إلى مشاورة ولا خبرة ولا اختصاص، هو طقم عرس معروف في بلدنا: قميص أبيض وربطة عنق بيضاء أوحمراء وبدلة سوداء، لا أكثر من ذلك ولا أقل، وحذاء أسود بالطبع، ما كان من ضرورة للمجيء إلى

هنا، هل سيختلف طقم العرس هنا عن طقم العرس في أي سوق آخر من أسواق المدينة؟ لكن لا بأس، هي مناسبة جميلة لرؤية عالم ما كنت أعرفه، بل ما كنت أتوقعه.

*

البائع في قسم الألبسة يرحب به.

- أريد طقم عرس لي.

ـ أهلاً وسهلاً بك، سأعرض عليك عدة أزياء منوعة ومختلفة، ولك أن تختار.

ـ أنا لن أختار، صديقي رؤوف هو الذي سيختار لي، بالمناسبة صديقي يحضر لدرجة الدكتوراه في الألوان، وعنوان رسالته....

يتلكأ، يتردد، يسعفه رؤوف بالقول:

- جمال الألوان من ناحية نفسية.

يعلق البائع:

- دراسة رائعة، نحن نحتاج إليها، عندنا قسم خاص لألبسة الأطفال، وفي الواقع يختار الأب لطفله لوناً، أو تختار الأم، أو يختار له البائع، ولكن في النهاية لا يعجب الطفل باختيار أي منهم، لا بد أن يختار لنفسه، نحن بحاجة إلى دراستك.

*

ينظر في السعر المثبت على ربطة العنق، لا يكاد يصدق، يقترب منه أكثر، يحدق، غير معقول.

*

أمام الصندوق يدفع سامح ثمن ما اشترى.

هل يوجد في بلدي حقيقة مثل هذا المول؟ ومتى تم افتتاحه؟ والله لا أعرف، ولا أصدق؟ وهل يشتري أحد من مثل هذه المحلات في هذا المول؟ هل هناك مجانين مثل صديقي سامح؟ لا شك في أن صاحب المحل سيخسر، وبعد سنة سيغلق

المحل، لا أظن أن أحداً يشتري بمثل هذه الأسعار؟!، لولم أكن أرى سامح بعيني يشتري ويدفع لما صدقت.

*

وهما في السيارة في طريق العودة يقول له سامح:

ـ هل أوصلك إلى المكتبة؟.

ـ أرجو أن توصلني إلى مبنى إدارة الجامعة.

سأقابل أستاذي المشرف، سأشطب موضوعي، لا ألوان ولا أحزان، لن أعمل في الدكتوراه.

ـ ماذا ستفعل في إدارة الجامعة؟ الساعة الآن الخامسة، لن تجد أي موظف.

ـ آه، لم أنتبه إلى الوقت، خذني إلى باب جنين، وسط المدينة، إلى حي العقبة.

ـ هل رجعتم إلى الحي القديم؟ أعرفك تسكن في حي الزهراء الجديد، في غرب المدينة؟!.

ـ سأزور جدتي.

في مدخل الحي القديم يقول له:

ـ كان بودِّي أن أوصلك إلى أمام البيت، ولكن أنت تعرف، سيارتي لا يمكن أن تدخل في هذه الحارات الضيقة.

وهو يودعه، وقبل أن ينزل من السيارة يقول له:

ـ تفضل اشرب فنجان قهوة عند جدتي، من نافذة غرفتها في العقبة سنطل على حلب، أنت تعرف العقبة حي مرتفع، وبيت جدتي مبني فوق سور المدينة القديم، أنت تعرف دارنا القديمة، وكم مرة زرتنا فيها، صدقني، جدتي تسألني دائماً عنك، تفضل.

ـ أوه، سامحني، كان يجب أن أدعوك إلى فنجان قهوة، هناك في الدور السابع في المول مقصف جميل جداً، يطل على حلب كلها، المطعم يقدم وجبة غداء فاخرة، تتناولها وكأنك في

الطائرة، وكان يجب أن أشتري لك شيئاً من المحل، هدية، ربطة عنق على الأقل، ولكن اعذرني، والله نسيت، ذلك البائع الشاب أدهشني بالأزياء التي عرضها علي، أنساني كل شيء، ما رأيك في العودة، هل نرجع لنتناول فنجان قهوة؟.

ـ أشكرك، لا أريد شيئاً، ونحن الآن أقرب إلى بيت الجدة، تفضّل.

ـ اعذرني يجب أن أزور الآن خطيبتي، يجب أن ترى طقم العرس، ستدهش عندما تراه، نحن في عام ٢٠١١، ولكن بدلتي من أزياء عام ٢٠١٥، أنا أحب أن أسبق دائماً الزمن، فهل تريدني أزور جدتك أم أزور خطيبتي؟ بالله عليك، لو كان عندك خطيبة، فهل كنت تزور جدتك أم الخطيبة؟

يضحك وهو يشد على يده:

ـ لأ، العروس أهم، ولكن أنا الآن سأزور جدتي، لعلي أجد عندها العروس، هنا في حي العقبة.

ـ لا، لا، أنصحك، لا تبحث عن عروسك هنا، ابحث عنها هناك، في الحي الغربي، أنت سكنت في الحي الغربي ولم تتطور بعد، ما زلت تحن إلى دار الجدة، لا ترجع إلى الماضي، اسبق الزمن، مثلي أنا.

رؤوف يهم بالنزول من السيارة، سامح يستوقفه، يضغط على يده، وهو يقول:

ـ رؤوف، اسمع مني، افعل مثلي، أنا سأتزوج ابنة صديق أبي، أبوها تاجر كبير، وأنا سأكلم أبي ليزوجك أختي، تعرفني، أنا وحيد لأبي، وهذه أختي الوحيدة، اترك الدراسة وتزوجها، اعمل معي في المعمل، أعينك مديراً إدارياً، تتزوجها فترث نصف المعمل، لا أريد أن يدخل إلى أسرتنا شخص غريب، أو شخص أقوى منّا أو أغنى، ما رأيك؟ على كل لن أسمع منك الآن أي جواب، فكِّر، وسنلتقي.

رؤوف يغادر، سامح يضع نظارته على عينيه، ثم ينطلق بسيارته.

*

أنا أحب رؤوف، ليته يعمل معي، سأمنحه دكتوراه شرف في علم نفس الإدارة والتجارة والسوق والأموال، هي خير من الدكتوراه في علم نفس الألوان، قسم علم النفس أفادني، ولكن المعمل أفادني أكثر وأكثر، المسكين لا يعرف الحياة.

*

ماكنت أعرفه على هذا الشكل من قبل، طول أربع سنوات، ونحن أصدقاء، تخرج واستمرت الصداقة، اليوم أجده اختلف كثيراً، مثلما وجدت حلب اليوم وقد اختلفت، ما كنت أعرف أن فيها مثل ذلك المول.

وهذه هي العقبة، أدخل في أزقتها الضيقة، ليت أبي ما انتقل بنا إلى حي الزهراء في الطرف الغربي، هنا، في العقبة، بلاط الزقاق المفلطح أحب إلى قلبي وأجمل، أنا أحس بوقع خطواتي، هنا في الزقاق الضيق أشعر بالدفء، الجدران تعطف عليّ، القناطر تحنو علي مثل الجدة، هنا أعرف من أنا، هنا سرت إلى جوار أبي، وهو يمسك بيدي، وأنا طفل في الخامسة من عمري، وهو يخطو خطواته الواسعة العريضة، بقامته السامقة، وأنا أعدو إلى جواره، لا أكاد ألحق به، هنا أرى أهل الحي كلهم وهم يسلمون عليه، أحدهم يمسح بيده على رأسي، والآخر يقدم لي قطعة سكر، وثالث أسمعه يدعو الله لي.

سأشطب موضوع الدكتوراه، لن أتابعه، أو لعلّي أغيره، ما جدوى نيلي الدكتوراه بعد عامين، أو ثلاثة؟ الزمن يسبقني، وقد أصبحت في الثلاثين؟.

سأحدث جدتي، سأطلب منها أن تبحث لي عن زوجة هنا في العقبة، ولماذا أكلفها عناء البحث؟ جارتنا أم نديم عندها بنت، أعرفها، لمى، لا شك في أنها تخرجت هذا العام في كلية العلوم.

*

ليتني لم أصطحب رؤوف معي، شعرت بالخجل أمام البائع، غبي، لا يفهم في الألوان، ولا الحياة، خسارة عمله في رسالة الدكتوراه، البائع في قسم الألبسة أولى منه بنيل دكتوراه شرف في علم الألوان، والله البائع أذكى منه وأفهم.

*

البائع في قسم الألبسة يقول لزميل له وهو يضحك:

ـ لا أعرف مثل هذا الجنون، لا ألوان ولا أذواق، ما سمع نصيحتي، ولا أخذ برأي صديقه، لماذا جاء به معه، وصديقه أبكم أخرس، وهو بنفسه اختار أسوأ الأنواع، وأبشع الألوان، لا لشيء، إلا لأنها من موديل عام ٢٠١٥، أنا قلت له هي من موديل عام ٢٠١٣، وهو صدق، القميص وربطة العنق والحذاء والبدلة، كلها، كل شيء من موديل عام ٢٠١٥، حتى الجوارب قلت له هي من موديل عام ٢٠١٥، وهو يصدق، مرة كنت أقول له ٢٠١٣، ومرة أقول ٢٠١٥، وهو يصدق، ولا ينتبه، والله لوقلت له هي من موديل عام ٢١٠٠ لصدقني، وهو ما اشتراها إلا لأنها غالية الثمن، ومن أفخم محل في المول، يريد الأغلى، دفع فاتورة أكثر من راتبي لعشرة أشهر.

ـ أنت زميلي في العمل، وأنا أحبك، هذا الكلام قلته أمامي، لا تكرره، ولا تحاول قوله أمام أحد مرة ثانية، وإلا خسرت عملك لا في هذا القسم، بل في المول كله، والأهم من هذا كله، قل لي: هل أعطاك البقشيش؟.

ـ ولا ليرة.

ـ لاتكذب.

ـ والله، ولا ليرة.

*

يدخل على جدته، تصغي إليه، يحدثها طويلاً، تهز رأسها، تبتسم، ثم تهمس:

ـ لا ياولدي، اصبر، يجب أن تتابع دراستك، أجِّل الآن موضوع الزواج، يجب أن تنال الدكتوراه، أنا أمية، لا أقرأ ولا أكتب، ولا أعرف، ولكن، هذا هو طريقك الذي اخترته أنت بنفسك، استمر فيه، لا تغيّر، ولا تتغيّر.

ـ كيف خطرت على بالك هذه الفكرة؟
ـ تذكَّري، قبل أسبوعين أو ثلاثة، عندما تخاصمت معك بسبب انقطاع شريط الطبق الفضائي، وصعدت ليلاً وأنا غاضب إلى السطح، اشتهيت وقتها أن تكوني معي.
ـ ليتنا نخرج كل يوم إلى السطح.

*

الحياة حقيقة جميلة، وجديرة أن تعاش، ما كنت أعرف أن عمارتنا جميلة، وأن الحي الذي نسكن فيه جميل، حتى القبو الذي نسكن فيه جميل، وحتى أنت ما كنت أعرف أنك حلوة وجميلة وجذابة وفاتنة إلى هذا الحد، كأنني أول مرة أنظر في عينيك، أرى السواد المتألق فيهما، أنت أجمل من كل الموظفات معي في المصرف، لا المحاسبة ولا معاونة المدير ولا السكرتيرة الخاصة عنده، والله حتى أجمل من نوال التي غلطت وعشقتها أيام زمان، أنت أجمل نساء الأرض، وأحلى منهن جميعاً، عيناك جميلتان، عينا أم، فيهما دفء وحنان، فيهما أنوثة وإثارة، تذكرني عيناك ببدلة زفافي السوداء، وثوب زفافك الأبيض، كيف مزقته عن جسدك، أراك الآن واللقمة في فمك، تقضمين البصل الأخضر، تغمسين الخبزة في الصحن، ترفعينها إلى فمك بهدوء، تلوكينها بلطف، فمك مغلق، لا تنفرج شفتاك، من علمك هذا؟ وأنت الفقيرة مثلي، وأبوك العامل وراء آلة النسيج، قرأت في إحدى الصحف عن معاهد خاصة تعلم الممثلات مثل هذه الطريقة في تناول الطعام.

*

ـ هذا الفول طيب، من أين اشتريته؟
ـ من المحل الذي أشتري منه كل مرة.
ـ اليوم مختلف، هو أطيب.
ـ لأننا نتناوله هنا على السطح.
ـ الحقيقة أجسادنا عفنت في داخل القبو، لماذا لا نصعد كل يوم إلى السطح؟
ـ لا أريد إتعابك، لا يمكننا الصعود كل يوم خمسة أدوار، بل ستة، من القبو إلى السطح، أكثر من سبعين درجة.
ـ ليت وَلَدَنا علي معنا، هو في الروضة، ليتنا أجّلنا صعودنا إلى السطح إلى يوم غد، وهو يوم الجمعة، يوم عطلتك، وعطلته.
ـ أنت المسؤولة، لولا الروضة لكان الآن معنا، أنت ألححت عليّ حتى وضعناه في الروضة، حتى تستريحي وتزوري جارتك.
ـ لا والله، أريد له الاستعداد للمدرسة العام القادم، وليلعب مع أولاد في عمره، وليخرج من رطوبة القبو، لا أريد أن يعيش مثلي طول النهار في العتمة والرطوبة.
تتلفّت حولها، تنظر إلى خزانات الوقود والماء وهي تملأ السطح، وإلى الأخشاب وقطع الأثاث العتيقة والمقاعد والكراسي والصناديق المحطمة.
ـ لماذا يملأ الناس الأسطحة بالأخشاب وقطع الأثاث القديمة المحطمة وخزانات الماء السوداء، لماذا لايضعون أصص الزرع وبرك الماء، لماذا لا يزرعون الأسطحة بالزهور.
ـ صدقيني أنا لا أراها، ولا أحس بوجودها، أنا أحس بوجودك أنت معي، وبهذه الشمس الدافئة، أنت أجمل زهرة، ليتني أحضرت للإفطار المأمونية والشعيبيات.

ـ أنت تذكرني بصباح اليوم الأول من زفافنا، لا أنسى تلك المأمونية والشعيبيات.
ـ غداً سيكون إفطارنا هنا على السطح المأمونية والشعيبيات، هذا وعد مني، عليّ يحب المأمونية.
ـ مثل أبيه.
ـ وأنت لاتحبينها؟
ـ أنا أحب الفول أكثر.
ـ دائماً تحبين مخالفتي.
ـ لا والله، أنا أمازحك، أسأل الله لهذا الساعة من السرور أن تدوم، أخشى وقوع مكروه، كل سرور لا بد بعده حزن.
ـ تفاءلي، لن يحدث أي شيء.
ـ هل نسيت يوم جاء الولد من الروضة والضمادات حول رأسه؟ كنا في زيارة لأختك، وأنا قلت لك أحس بالضيق، علينا العودة إلى البيت بسرعة، وصدق توقعي.

*

لن يحدث أي شيء، السماء صافية، ولا غيمة فيها، والشمس ساطعة، دافئة، بل حارة، مثل صدرك، لا يتوقع أن تغطيها فجأة الغيوم، هل يمكن أن ترعد وتبرق ويهطل المطر؟ وليهطل، لن ينغص علينا هذا الصباح الجميل، ليت السماء تمطر لنستحم هنا على السطح تحت المطر، ولننزل إلى قبونا مبللين، نبدل ثيابنا، وآخذك بين يدي، لن يحدث زلزال فجأة، وليحصل، ولتسقط العمارة كلها، ونحن هنا، أنا وأنت، معاً، خير لنا أن يحدث الزلزال على السطح من أن يحدث ونحن في القبو، لنمت فوق الركام خير لنا من أن ندفن تحت الركام، عليّ سيعيش من بعدنا، سيجد من يرعاه، له الله، هل هناك ما هو أسوأ؟ لن يحصل ما هو أسوأ؟ هل سنختصم أنا وأنت؟ اختصمنا من قبل مرات ومرات، ما من زوجين إلا واختصما،

ثم كنا في الفراش ننسى الخصام، كان يحلو لنا الخصام لنتصالح من بعده، كم مرة وأنا في الطريق إلى البيت كنت أفكر في مخاصمتك، بل أخاصمك بيني وبين نفسي، أقول لنفسي: "سأصل إلى البيت وأجد الطعام غير جاهز، أو لن أجدها في البيت، هي في زيارة لأهلها، والولد يلعب في الشارع، رجع من الروضة فلم يجدها"، وأصل إلى البيت، وإذا أنت في المطبخ، مع الولد، تطعمينه، فأعانقك وأضمك إلى صدري، تفاجئين، تسألين ما سر هذا الغرام المفاجئ، لا تعرفين أنني خاصمتك بيني وبين نفسي، ثم صالحتك، لا أنسى كلمات أم كلثوم، "خاصمتك بيني وبين روحي، وصالحتك، وخاصمتك تاني"، خصامك حلو، كل العواطف كانت معانا حتى في خصامنا، سامحك الله يا أم كلثوم، سرقت كل كلماتي وأفكاري.

*

ـ لماذا تخلع قميصك؟

ـ لا أعرف، أحسّ بدفء زائد، أحسّ بتوهُّج، الشمس حارة.

ـ أخشى عليك لسعة البرد، لا يكفي القميص الداخلي، لا يرد البرد، نحن في كانون الأول.

ـ لكن السماء صافية، والشمس ساطعة، بل حارة، ونحن في عز الظهيرة.

ـ لكن الجو بارد، لا أعرف لماذا أخذت اليوم إجازة؟

ـ هكذا، ألا يحق لي أن آخذ إجازة، وأرتاح من يوم عمل في مثل هذا اليوم الدافئ، كل يوم وأنا في الغرفة الزجاجية مع النقود، عد عد عد، وداخل المصرف المزدحم، وفي الشارع المزدحم، سجن في سجن في سجن، والأسوأ سجن العقل، عقلي كله في العد، أنا أخذت الإجازة من أجلك، لنبقى معاً في البيت، لننام إلى الضحى ولو مرة واحدة، ونستيقظ متأخرين،

ثم نتناول الإفطار متأخرين، ليكون إفطارنا هو الغداء، الأغنياء يذهبون إلى المطاعم ونحن نصعد إلى السطح، ونأكل الفول.

ـ ولكنك أكثرت من الزيت.

ـ هل سنختصم ونختلف؟ أنا أحب الزيت القليل فوق الفول، مثل نجوم السماء في عز الظهيرة، وأنت تحبينه يطفو فوق الفول مثل المحيط.

ـ ولكنك دلقت فوقه الزجاجة كلها.

ـ لأ، بقي فيها شيء قليل، وحتى لا يبقى فيها أي شيء، سأرميك بما بقي فيها، خذي.

ـ أوه، لا، حقاً تريدنا أن نختلف، ملأت قميصي بالزيت، ما هذا المزاح؟! هكذا ترشقني بالزيت؟!

ـ أنت توقعتِ أن يحدث شيء، وقد حدث، هيا اخلعي قميصك مثلي.

ـ لا، غير معقول، لا يمكن.

*

أتشهى أن أقبلك الآن، وأن أمزق قميصك، وأغوص في الصدر، وأضمك إليّ، لماذا لا أضاجعك هنا على السطح بين هذه الخزانات، وهنا إلى جانب الفول، ثم أدلقه مع الزيت فوق شعرك، وننزل بعد ذلك لنستحم، آه لو نستحم هنا على السطح، بالماء البارد من هذه الخزانات، نبعج الخزانات كلها ونستحم بمائها، تحت السماء، لا يرانا أحد، وأنا صغير كنت أستحم في فناء الدار، تضع أمي طست الماء تحت الشمس، ثم أستحم بمائه الدافئ، لا بد أن أمزق قميصك، على سطح إحدى العمارات مارس شاب وصبية الجنس وبرج التجارة في نيويورك يتداعى ويسقط، لماذا لا نمارسه هنا والشمس

ساطعة والجو دافئ، وأمامنا في الأفق القريب عمارة برجية تصعد، والرافعات وعمال البناء يشيدونها.

*

ـ لا، غير معقول، أحمد ماذا جرى لك، أبعد يدك عن صدري، لا تنس، نحن على السطح.

*

ظل أسود يرتسم فوقنا، يحجب الشمس عنا، زوجتي تنهض مذعورة، صحن الفول ينقلب بدفعة من قدمها وينداح الزيت، وهي ترد قميصها على صدرها، وصوت أجش يصيح:

ـ ما هذا، على السطح؟ وفوق بيتي؟

أرفع رأسي، عملاق يسد عليّ المشهد، ويد تمسك بقميصي الداخلي.

ـ ألا تستحي، تصعد العمارة ومعك معشوقتك، ما طاب لك الفول إلا على سطح العمارة؟ من أين جئت؟ ومن أنت؟.

زوجتي تصيح:

ـ لا، لا، يا أبو عبدو، نحن جيرانك، أنا أختك أم علي، اسأل جارتك أم عبدو، وهذا زوجي أبو علي.

يلتفت إليها مزمجراً، وهو يصيح:

ـ تستري أنت يا حرمة، روحي انزلي، اركضي إلى بيتك، أنا لاأعرفك ولا أعرف هذا الرجل.

أتملَّص منه، أهتف به:

ـ أنا جارك أبو علي، وأنا أسكن هنا في القبو من سبع سنين، غير معقول، كيف ما عرفتني؟.

عيناه زائغتان، يتكلم وعيناه في السماء، لا يراني، لا يبصر أمامه.

ـ لا يهمني، زوجتك أو غير زوجتك، المهم أنك على سطح العمارة، وفوق شقتي بالضبط، أنا لا أسمح، امش معي إلى مخفر الشرطة، وهناك في المخفر دافع عن نفسك.

تدخل زوجته أم عبدو:

ـ لا، يا أبو عبدو، هذا جارنا أبو علي، أنت ضربك العمى، وهذه جارتنا أم علي، هل نسيت؟ هذا جارنا الموظف في المصرف، كلما جاءتك عملة ممزقة أخذتها أنا لزوجته وهو يبدِّلها لنا بعملة جديدة؟ هل نسيت؟.

أبو عبدو يعانقني، يقبلني في الخدين ألف قبلة، يطبُّ على يدي يقبلها.

ـ سامحني، سامحني، أقسم بالله العظيم، أقسم بكل الأنبياء والرسل أنا ما عرفتك، نعم، زوجتي تحكي لي دائماً عنك، الله يلعن الشيطان، ساعة غضب.

أم عبدو تلتفت نحوي تتوسل:

ـ أرجوك سامحه، أبو عبدو عصبي، يغضب بسرعة، لكن قلبه طيب، سامحه أرجوك.

أبو عبدو يقسم الأيمان بالله والأنبياء والرسل كلهم.

ـ سنفطر هنا على السطح، غداً الجمعة، سيكون إفطارنا المأمونية والشعيبيات، أنا أدعوكم، سأدعو إذا شئتم كل سكان العمارة لأجلكم، وأعتذر لكم والله أمامهم، سامحوني، سامحوني.

*

أهبط وزوجتي إلى القبو، أسألها:

ـ ما رأيك؟ هل نلبي دعوته ونتناول معه الإفطار غداً على السطح؟

أدفع الباب الزجاجي وأدخل، الزجاج مغبر متسخ قذر ربما لم يمسح منذ أن وضع في الباب قبل خمسين عاماً أو أكثر، في المحل منضدة خشبية هي من بقايا الحرب العالمية الأولى، رفوف وخزائن خشبية ترجع في العمر إلى عهد أسبق، رائحة عفونة ورطوبة وعطن، رجل في الأربعين من عمره، بدين كأنه البرميل، يقعد وراء المنضدة، أسمر داكن السمرة، شعر لحيته أسود خشن، على رأسه قبعة صوفية يرجح أن يكون قد ورثها عن جده، إلى يساره فوق خزانة حديدية عدَّادة حديثة، حييته، فرد على الفور بصوت خشن جاف مثل خشب مهترئ:"ماذا تريد، دولار أم يورو؟"، أجبته:"ألف يورو"، فرد:"هات سبعين ألف ليرة"، ناولته رزمة نقود، عدّها بين أنامله بسرعة البرق، وضعها في العدادة، فتح الخزانة الحديدة، ورمى بالرزمة فيها، كأنه يلقي علبة تبغ فارغة، استل رزمة صغيرة من الخزانة، عدّها بين أنامله بسرعة مذهلة، ثم وضعها في العدادة، أعاد عدها بين أصابعه، ثم رمى بها أمامي على الطاولة. أرجع إلى صديقي الذي دلّني على الصراف، أسأله: "لماذا يعامل الناس بهذا الجفاء؟ هل هو أجير أو عامل عند الصراف؟"، يضحك صديقي، يضحك كثيراً، ثم يقول:"هذا هو الصراف، هذا الرجل الذي لم يعجبك لا يعرف هو نفسه كم هو رصيده، أمواله بالمليارات في مصارف العالم كله، لا يهمه مظهره، لا يهمه الناس، تهمه الأموال فقط".

لحظة توقف...في الرحلة الطويلة

أشجار كثيفة ملتفة رائحتها نفّاذة فيها عبق السنديان وشذى التربة المبللة وفوح الأوراق الخضر النضرة، فيما بينها فُرْجة أدخلها تحتويني رطوبة وإذا أنا في مغارة معتمة تنفث أوهاجاً حارة ممزوجة بنداوة مغرية تدعوني إلى الدخول في العمق أكثر فأكثر أدخل بخطا مستقيمة في العمق فجوة تنادني أحس برطوبة منعشة ودفء لذيذ العتمة تحتويني قوة ما تجذبني تسحبني إليها تشدني تمتصني أذوب في المغارة وأنا فيها وحدي أحس بذاتي أنا هنا وذاتي تملأ العالم كله والعالم كله حلّ بي أسمع وقع قطرات أنجذب نحوها من السقف تتساقط قطرات متتابعة في إيقاع منتظم أرتشفها الخدر ينال مني أوشك أن أنام أسرع أسحب نفسي من المغارة وهي تبتلعني حتى الشجر في الخارج يكاد يطبق علي بأغصانه اللدنة الناعمة وأوراقه الكثيفة ذات الرائحة العبقة أكاد أعود.

أسمع بوق الحافلة، ألتفت وإذا الحافلة بدأت تتحرك، أُسْرِعُ إلى الصعود فيها وهي تنطلق، كل الركاب يسألونني: لماذا تأخرت؟ السائق يقول: رحلتنا طويلة، أعرف هذا، ولكن لا أعرف سر هذه المنطقة، دائماً يطلب الركاب التوقف فيها، ولا بد أن يتأخر أحدهم، لا أعرف ما سر هذه البقعة بالذات.

هل أحدثهم عن المغارة؟

صدر للمؤلف

دراسات:

حركة التأليف المسرح في سورية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٢
المسرحية التاريخية في المسرح العربي، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٩
دراسات في المسرحية العربية، مطبوعات جامعة حلب، حلب، ١٩٩٧
دروب الشعر العربي الحديث، مطبوعات جامعة حلب، حلب ٢٠٠٠
من الأسطورة إلى القصة القصيرة، دار علاء الدين، دمشق،٢٠٠١
قصائد مقارنة، مطبوعات جامعة حلب، حلب،٢٠٠١.
انكسارات، دار المعرفة، بيروت،٢٠٠٤.
متعة الرواية، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٥.
عمر أبو ريشة والفنون الجميلة، وزراة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٦.
من التراث الشعبي، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٥.
قصيدة النثر، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٧.
نوافذ وشرفات، دار الثريا، حلب، ٢٠٠٧.
قراءات في الشعر العربي الحديث، مطبوعات جامعة حلب، حلب، ٢٠٠٨.
اللغة العربية وثقافة القرن الحادي والعشرين، دار الثريا، حلب، ٢٠٠٨.
دراسات في المسرحية العربية، جامعة حلب، طبعة مختلفة كلياً، ٢٠١٠.
نقد السرد، دار الفرقان للغات، حلب، ٢٠١١.

إبداع:

يوم لرجل واحد، (قصص)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٦
حجارة أرضنا، (قصص)، مط، عكرمة، دمشق، ١٩٨٩
الكوبرا تصنع العسل، (رواية)، دار القلم العربي، حلب، ١٩٩٦
بدر الزمان، (مسرحية)، دار القلم العربي، حلب، ١٩٩٦
حلم الأجفان المطبقة، (قصص)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٦
عريشة الياسمين، (قصص)، دار القلم العربي، حلب، ١٩٩٦
لأنكِ معي، (قصص قصيرة جداً)، دار شمأل، دمشق، ٢٠٠٠.
طعم العصافير، (قصص)، دار القلم العربي، حلب، ٢٠٠١.
العودة إلى البحر، (قصص)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١.
الرحيل من أجل مها، (قصص)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٣.
وردات في الليل الأخير، (قصص)، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٥.
نجوم صغيرة، (قصص قصيرة جداً)، مط.الأصيل، حلب، ٢٠٠٦
ريش نعام، (قصص قصيرة جداً)، دار الثريا، حلب، ٢٠٠٧
التفاحة الأخيرة في الحقل،(قصص قصيرة جداً)، ٢٠٠٨، موقع ديوان العرب.
عصفور من الغرب،(رواية)، ٢٠١١، موقع ديوان العرب.
حمامات بيض ونارجيلة، (رواية)، دار الفرقان للغات، حلب، ٢٠١١.
فوق سطح العمارة، (قصص)، دار الفرقان للغات، حلب، ٢٠١٢.

المحتوى

العنوان	ص		العنوان	ص
قطعة حجر على الرصيف	٣		آخر حكايات جدتي	١٠١
نصف هذه الأرغفة يكفي	٨		قبل الاجتماع	١٠٥
مقابلة ناجحة	١٠		غضب لا مبرر له	١٠٩
ميت من ألف سنة	١٧		العشاء مع الزوجة والأولاد	١١٥
مسألة قلب	٢٠		زائرة	١٢٧
فوق سطح العمارة	٢٤		التين الجاف	١٣٠
كرهت أبي كثيراً	٣٠		آنية من صلصال	١٣١
السيارات في المقهى القديم	٤٨		العودة إلى الوطن	١٣٢
أجرة الشقة	٥٦		كل المحطات	١٣٤
هل تعود إليه الحياة	٥٩		حكاية الألوان	١٤٠
المتقاعد	٦٢		وليمة فوق سطح العمارة	١٥٠
في الطائرة إلى جوار الأمير	٨٣		لا يعرف كم هو رصيده	١٥٧
البحث عن سيرة شاعر	٨٦		لحظة توقف	١٥٨
أطفال	٩٦		صدر للمؤلف	١٥٩
القمر غاب وطلعت الشمس	٩٤		المحتوى	١٦٠

دار الفرقان للغات ـ حلب

٢٠١٢